جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران
الجزء العاشر

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار الفران
الجزء العاشر

قولـه تعـالى : (وَاعْلَمُـوا أَنَّمَـا غَنِمْـتُمْ مِـنْ شَـيْءٍ فَـأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُـولِ وَلِـذِي الْقُرْبَـى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)) سورة الانفال.

تأويل الآية :

**تأويل هذه الآية : أن الله تعالى بعد أن حكم بأن الأنفال له جل جلاله بقوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) . بين هنا سبحانه وتعالى الوجوه التى تقسم عليهم الأنفال قال سبحانه : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ)، والغنم : هو ما فاز به الإنسان من أموال المحاربين عنوة ، والفىء : هو ما فاز به المسلمون من أموال الكفار من غير حرب بالصلح أو الخراج ، بدليل قوله تعالى : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)[1] نإف ةمينغلا امأو ، ىلاعت الله مهركذ نمـ ىلـع)ملسو هيلع الله ىلص(الله لوسر ةفرعمب مسقيـ هعيمج نأ ءيفلا اذه مكحو هناحبسـ مهركذ نملو)ملسو هيلع الله ىلص(الله لوسرل سمخلا ، ماسقأ ةسمخ اهميسقتب هرمأف ، اهيف مكحلا نيبـ الله . مهلـ اعيجشت نيلتاقملا قحـ نمـ ماسقأ عبرأو ، ىلاعتو

وتأويل ذلك أن الخمس يكون لله يمد به من شاء من خلقه فهو له ملكا وايجادا وإمدادا وللرسول (صلى الله عليه وسلم) تصريفا وانتفاعا ، فإن الدنيا والآخرة لله تعالى ، وإنما نسب الخمس له جل جلاله ليسر المجاهدين بفضله وإحسانه ، فالخمس لرسول (صلى الله عليه وسلم) يقسمه بين من ذكرهم الله تعالى بقوله : (وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فله (صلى الله عليه وسلم) أن يقسم الغنائم خمسة أقسام ، وله أن يفعل بالخمس ما يشاء.

الحكم بعد انتقاله (صلى الله عليه وسلم) :

واختلف العلماء فى الحكم بعد انتقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فمنهم من قال : يعطى الخمس للخليفة يقسمه بين مستحقيه ، ومنهم من قال : يقسم الخمس على الأربعة فئات المذكورين فى الآية الشريفة ، والذى عليه العمل فى الحقيقة : ما فعله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

(وَلِذِي الْقُرْبَى) أى : من لهم قرابة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع فقرهم، وقرابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) محصورة فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب لأن هاشم والمطلب أخوان ، وكان بنوا المطلب أنصارا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أول البعثة ، وقد طلب أفخاذ من قريش أن يشركهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الخمس ، فقال لهم : (هو حق لبنى هاشم وبنى عبد المطلب لأنهم لى وأنا لهم) .

(وَالْيَتَامَى) هم كل صغير ليس له والد ولا مال ينفق عليه منه ، (وَالْمَسَاكِينِ) وهم الذين لا يملكون قوتهم فأسكنتهم الحاجة إلى الأرض مثل الشيوخ والعجزة والضعفاء . (وَابْنِ السَّبِيلِ) وهم المسافرون فى طلب العلم أو هجرة من دار الظلم ، أو لطلب الضرورى من العيش ، والسبيل : هو الطريق كناية عن السفر . (وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ) والسائلين : هم الذين أحوجتهم الحاجة إلى أن يسألوا الناس ما لابد لهم منه ، ولا يحل السؤال إلا فى هذا الحال حيث يحرم على المسلم أن يموت جوعا .

---

(1)الحشر7

(إن كنتم آمنتم بالله) هذه الآية جعلت تنفيذ هذا الحكم واجبا ويؤخذ منها أن الخمس الذى هو لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولمن ذكرهم الله إذا انتقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجب أن يرد الخمس إلى الأربعة المذكورين فى الآية .

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)

أى : إن كنتم صدقتم بالله وبآياته التى أنزلها (يوم الفرقان) أى : يوم بدر .

العبد هو المراد من ذات الله :

وفى قوله (عَلَى عَبْدِنَا) إشارة عالية جدا وهى أن مقام العبد أعلى المقامات كلها ، وبكمال هذا المقام يعطى الله الرسالة والنبوة والولاية الكبرى ؛ لأن الله لم يقل على رسولنا ولا على حبيبنا بل قال على عبدنا تشريفا لمقامه (صلى الله عليه وسلم) وحفظا لقلوبنا وأفكارنا لنعلم أن مقام العبد فوق كل المقامات فنسارع إلى أن نتجمل به علما وعملا لنكون عبيدا مخلصين لله تعالى ، ومن جهل مقام العبد جهل كل شئ ومن ظفر بالعبد فاز بكل خير فى الدنيا والآخرة ، والعبد هو مراد ذات الله الذى خلق لأجله كل شئ وخلقه لذاته ، وقوله تعالى: (عَلَى عَبْدِنَا) فيه من تعظيم العبد ما فيه لأنه عبد الذات فى عظمة كبريائها وعزة مجدها ، ومن ذاق حلاوة قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) وقوله : (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ) يفهم المقام الأحمدى الذى بشر به عيسى عليه السلام (يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) أى جيش الكفار وجيش الله تعالى (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى قدير على ما أظهره من عجائب قدرته وغرائب حكمته مما ظهر فى نصره لرسوله وصحابته .

قوله تعالى : (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية الشريفة : أى : اذكروا وقت أن كنتم موجودون (بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا) و (العدوة) قرئت بضم العين وفتحها وكسرها ، و(الدُّنْيَا) يعنى القريبة من المدنية مؤنث أدنى، (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) (الواو) للحال والجملة حالية ، أى : وكفار قريش (بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) أى : بعيدين عن المدينة ، (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) (والواو) أيضا للحال (أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أى : قرب ساحل البحر (وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) أى : ولو خرجتم عن موعد بينكم لما اتفق لكل فئة وجودها فى مكانها ، ولكنه بتقدير الله لحكمة قدرها سبحانه .

(وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا)

أى : إن الله قدر أن يكون الأعداء بالعدوة القصوى وأن تكونوا بالعدوة الدنيا لحكمة تنكشف لكم بعد أن قدر الله تعالى أن يبرزها فى الوجود الظاهر . (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) بدلا من قوله : ليقضى ، و (اللام) هنا للعلة أو للغرض ، وأعمال الله تعالى لا تعلل ، وإنما هى للحكمة التى تظهر بعد ، وإذن فالأعمال الجسمانية التى لا يقصد بها وجه الله تعالى ولو كانت جهادا أو حجا أو إنفاقا لا يقبلها الله تعالى ؛ لأن العامل إذا لم يعرف نواياه فى عمله كان كالحيوان الأعجم لا يفقه لأعماله حكمة .

معنى الآية :

ومعنى الآية : أن الله تعالى قدر إهلاك قريش مبينا سبحانه لهم أن الكثرة والقوة والمنعة تنهزم أمام القليلين إذا أيدوا بروح من جاهدوا نصرة له جل جلاله (وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) أى : ولينصر الله من نصروه مع قلتهم وقلة عددهم وعددهم (عَنْ بَيِّنَةٍ) أى : عن بيان قامت به الحجة أن النصر من عند الله . قال تعالى (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[1] .

(وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

---

(2). ال عمران : 126

(اللام) هنا للقسم تأكيدا للخبر ، و (سميع) أى : يسمع دعاء من سأله خصوصا فى مواطن الشدة والجهاد فيلبيه ويغيثه بخفى لطفه من حيث لا يعلم السائل و(عَلِيمٌ) أى يعلم ما عليه كفار قريش من الكفر والعناد لله تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) ومن الخيلاء والبطر فيعجل لهم النقمة ، وكذلك يعلم ما عليه أهل الإيمان من الغيرة لدينه والمسارعة إلى إعلاء كلمته ونصرة نبيه (صلى الله عليه وسلم) فيؤيدهم بروح منه .

قوله تعالى : (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43)) .

معلوم أن منام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كشف صريح ، أما منامنا نحن فتصوير للحقائق يحتاج إلى تأويل و(قَلِيلًا) أى : إنهم فى الحقيقة قليل بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ لأن كثرة عددهم وعددهم مع فقدهم التأييد من الله وحسن النية فهم قليل ، ومعنى (إِذْ يُرِيكَهُمُ) أى : يجعلك تبصرهم بعينك فى منامك ؛ لأن الرؤيا فى المنام تساوى النظر فى الحقيقة (وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا) أى : لو أن الله تعالى أراكهم فى منامك كثيرا ورؤيته (صلى الله عليه وسلم) كشف صريح ، إذا تقرر ذلك وأراهم الله نبيه كثيرا لوقع ما أخبرنا الله به من قوله تعالى : (لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ) (والفشل) هو الضعف المؤدى إلى الهزيمة و (التنازع فى الأمر) هو الاختلاف والمعارضة فيه .

(وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) أى : إن الله عاملكم بلطفه وأكرم حبيبه ومصطفاه فيكم فسلمتم من الشر الذى كانت تقتضيه المنازعة والمعارضة لو أراكم كثرة العدو مع وفرة الماء والزاد والعدد والعدة عندهم وصلاحية مكانهم للحرب ، وقلة الماء والعدد والعدة عندكم وفساد الأرض التى أنتم عليها لأنها كانت كثيرة الرمال الناعمة التى لا تستقر عليها الأقدام ، فنصرة الله لكم على أعدائكم فى هذه الحالة يعد معجزة كبرى لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أى : محيط علما بنواياكم ودخائل نفوسكم التى لا يطلع عليها غيركم وعليم أيضا بخبث نوايا المشركين وسوء مقاصدهم ومسارعتهم إلى مساخط الله تعالى عليهم فعاملكم بما فى صدوركم وعاملهم بما فى صدورهم .

قوله تعالى : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)) .

حكمة هذا الكشف الإلهى :

واذكروا من منن الله العظمى عليكم رؤيتكم لأعدائكم عند اللقاء قليلا تصديقا لمنام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإنكم رأيتموهم بأعينكم فى قلة وذلة ولم يكونوا كذلك ، ولكن الله تعالى كشف عن بصائركم الحجب فرأيتم بأعينكم ما هم عليه من ذل الكفر ومهانة التكذيب بآيات الله وخزى محاربة الله تعالى ، ولهذا الخبر حكم كثيرة ، منها ان الله كاشف المؤمنين بقدر الكفار عند الله تعالى تثبيتا لقلوبهم واطمئنانا لنفوسهم ، ولولا ذلك لانهزموا ؛ لأن العقل والمنطق يحكمان باستحالة نصرة ثلثمائة رجل وثلاثة عشر عزل من الاستعداد بالسلاح على جيش قوى عددا وعدة ووفرة فى الزاد والشراب .

(وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ)

حكمة هذا التقليل :

ولهذا التقليل حكمة عالية أيضا : فإن المشركين لما رأوا جيش المسلمين قليلا ازدروا به واحتقروه ولم يحسبوا له حسابا ، ولو أنهم رأوه كثيرا لأعدوا له العزيمة والهمة والحماس ، ولما قال أبو لهب بمكة ، إنما نصر علينا محمد بالملائكة التى جاءت من السماء ، فكان فى ذلك خزى وعار لهم وتلك الحكمة فوق العقل ، لأن العقل يرى أن التأييد الإلهى لنا كان يقتضى أن يجعلنا كثيرا فى أعينهم ليفزعوا منا .

(لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا)

أى : لينفذ الله تعالى ما قدره من تقليل جيش المشركين الذى يقرب من الفين بأحباشه وأتباعه وفى أعين جيش أقل من ثلث الألف ، فيقضى الله أمرا من عجائب القدرة وغرائب الحكمة وباهر المعجزات (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أي أن الله افتتح إيجاد هذا العالم وقدر له عمرا معلوما فإنه سبحانه الذى قدر رجوع العالم إليه بعد موته بإحيائه الحياة الثانية (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) كلها للفصل فيها بالقضاء العادل .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45)) .

إذا لقيتم فئة من الكفار لجهادهم فى سبيل الله (فَاثْبُتُوا) ثبات الواثق بنصر الله ، المسلم أموره كلها لله ، المجاهد لتكون كلمة الله هى العليا (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) أمر من الله للمؤمن أن يستغرق كل أنفاسه فى الذكر فلا يخلى نفسا من أنفاسه من الذكر حتى فى وقت الفزع الأكبر ، فإنه سبحانه أمرنا بالذكر الكثير عند الملحمة الكبرى حيث تطيش العقول وتتبتل الألسنة ويهلع الجبان ، يأمرنا ربنا بذكره كثيرا.

حقيقة الذكر :

وقد تأول هذه الآية بعض العلماء بأن الذكر هنا : الدعاء ، ولكن الدعاء ذكر قليل والمأمور به هو الذكر الكثير ، ولا يتحقق الذكر الكثير إلا إذا كان ذاكرا بلسانه بالدعاء ذاكرا بقلبه مستحضرا القريب المجيب المغيث القوى المتين ، ذاكرا بيديه الطعن والضرب ذاكرا برجليه الكر والفر فى سبيل الله ، ذاكرا بعينيه النظر إلى المواقع التى تضعف العدو ذاكرا بأذنيه الإصغاء إلى أمر القائد ونهيه ، ذاكرا بكل جسمه يتمنى أن يمكن الله للمسلمين فى الأرض ، وأن يهلك عدوهم وأن يرزقه الشهادة على الإسلام ، وبهذا الموقف يكون المجاهد قد ذكر الله كثيرا بإخلاص ويقين ، بل وقد يحصل له الشهود حتى يرى جمال ربه جليا ، وإذا كان ذكر الله تعالى واجبا على المؤمن فى وقت الفزع الأكبر فكيف يكون وجوبه عليه فى أنفاس الصفاء حتى لا يشغله عنه مرض أو فقر أو خوف عدو ظالم .

وهذه الآية أقامت الحجة على أن الله يحب من عبده دوام ذكره وأنه ما ابتلى المؤمنين إلا ليديموا ذكره بالدعاء والتضرع والتبتل ، ويكثروا ذكره بتلاوة القرآن الكريم لتكون الألسنة رطبة بذكره دائما .

فلاح الدنيا وفلاح الآخرة :

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى : لتفوزوا بالفلاح ، وهو الفوز بكل المقاصد فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فنصر من الله قريب وتمكين فى الأرض بالحق وظهور الحق على الباطل ، وأما فى الآخرة : فيكون بالموت على الإسلام ، وإكرام الله لهم بجعل قبورهم روضة من رياض الجنة ، وتفضله على الشهداء بأن يجعلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، ثم بحملهم يوم القيامة على نجب من نور إلى رضوان الله الأكبر لأنهم باعوا النفس والمال فى سبيله سبحانه ، وهذا ما يمكن أن يبينه اللسان عن الجنان ، والحقيقة : أن الله أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)) .

آداب المجاهدين :

وفى هذه الآية بيان الآداب التى يجب أن يكون عليها المجاهد ، وهى السياسة الحكيمة التى أمر الله بها المجاهدين فى سبيل الله .

وأولها : الأمر بالثبات . وثانيها : الأمر بذكر الله كثيرا . وثالثها : إطاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) فيما أمرنا به من مجاهدة أعدائه وأعدائنا ، وإطاعة الرسول فيما بينه لنا وسنه (صلى الله عليه وسلم) ، ومن غير أن يجاهد لعلة أو لغرض أو لطمع فى غنيمة أو حب انتقام من عدو ، فإن ذلك كله مما يحبط الأعمال .

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

التنازع نتيجة الاختلاف فى الرأى :

التنازع : هو وقوع الاختلاف بينهم مما يؤدى إلى التفرقة والضعف والوهن ، كما أنه يقوى العدو ويشغل المجاهدين بغير محاب الله ومراضيه ، ولهذا نهاهم سبحانه عن التنازع ، لأنه نتيجة الاختلاف فى الرأى ، والأخذ بالرأى محظور عليه شرعا ما دام صريح القرآن بين الحقائق ،وكذلك القياس محظور عليه شرعا ، اللهم إلا إذا لم يكن ثم صريح القرآن ، وأيضا الحكم على حدث من الأحداث بالحل أو الحرام أو الإباحة أو الحظر فلأهل الاجتهاد أن يستنبطوا الأحكام بالأشباه والنظائر ، ولذلك رأى بعض العلماء أن الأخذ بالقياس حرام ، ولا يأخذون إلا بالكتاب والسنة أو بإجماع الصحابة أو باستنباط العلماء الراسخين فى العلم إذا لم نجد الحكم صريحا فى الكتاب والسنة والإجماع ، ومن خالف تلك الأصول الثلاثة برأى أو قياس فقد قدم بين يدى الله ورسوله وقد نهانا الله عن ذلك بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) وما تنازع قوم وهم فى عمل لله ولرسوله إلا دل ذلك على مرض فى قلوبهم ومنافسة فى حظ يزول حفظنا الله تعالى من شرور مرضى القلوب ، ولا يميل عن الصريح إلى الرأى والقياس إلا من رضى بالعاجلة وأحب أن يتجمل لأهلها (فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) أى : تجنبوا عند لقاء عدوكم أن تنهزموا أمامه من غير تحرف لقتال أو تحيز إلى فئة ، فإن المنهزم ـ متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ـ يكون مجاهدا حقا ، وهى رخصة فى وقتها من أهم العزائم ، فإن الأخذ بالرخص فى مقتضاها عمل بالعزائم ، فالمفطر فى سفر أو فى مرض عند الله صائم وله أجر الصائم ، لأنه نفذ حكم الله تعالى كما نفذه الصائم (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) الريح هنا : هو الدولة والسلطنة ، فإن أصحاب السفن يرون الريح نجاة لهم وفوز ؛ فإذا أسكنت الريح تعطلت السفن ، وإذا أقامت الريح فتحت أبواب الخير لهم ، وقوله تعالى : (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) أي : دولتكم ، وقد نفهمها على ظاهرها وهو الريح الذى هو الهواء ؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (نصرت بالصبا وأهلكت ثمود بالدبور) . والصبا هو : الريح الذى يأتي من الشمال والدبور : ما يأتي من الجنوب ، والتأويل الأول أولى وقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معجزة من الله له .

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

الصبر : هو حبس النفس عن الجزع عند نزول المصائب ـ أعاذنا الله تعالى ـ وقد أمرنا بالصبر عند الملحمة الكبرى مع الكفار وهو الأدب الخاص بعد ما تقدم من الآداب ، فإن الله امرنا بالثبات عند لقاء الأعداء وبذكر الله كثيرا وبإطاعة الله ورسوله ونهانا عن التنازع ، ثم أمرنا بالصبر جل جلاله ، والصبر هنا هو الصبر بالله والصبر لله ؛ لأن المجاهد لا صبر له إلا بالله تعالى ولا يتحمل تلك الشدائد إلا لله ، ليفوز برضوانه الأكبر أو بالجنة أو بالنصرة والغنيمة أو بها جميعا.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

المراد بالمعية :

والمعية معلومة وتفيد وجود الآخر معك ، وهى هنا : بمعناها اللغوى مستحيلة على الله تعالى وما بقى إلا أن يكون الله معنا بنصره وخفى ألطافه وحسن تدبيره ، وسابق أقداره معية فوق معية من يكون معنا فى الزمان والمكان ، فإن المراد بالمعية نيل الخيرات لا مقابلة الأجسام ، وكم من إنسان متمكن فى المعية مع مجانسه وهو ينوى به الضرر ، وصدق الله العظيم فكم رأينا أفضاله مبينة عند الصبر وسريع إعانته عند الرضا ، حتى تحققنا بمشهد فوق المعية فرأيناه جل شأنه أقرب إلينا من أنفسنا بل ومن حبل وريدنا ، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يعلم الواصفون صفته ، فنحن آمنا وصدقنا وسلمنا بما أخبرنا من الصفات كما هى ، فهو معنا ونحن معه وهو سبحانه أقرب إلينا من حبل وريدنا ، كما أخبر عن نفسه وأخبر عنه الصادق الأمين والرسول الكريم سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)) .

هذه الآية خبر من الله تعالى عن كفار قريش الذين خرجوا لنجاة غيرهم ، فالله تعالى يأمرنا أننا إذا خرجنا للجهاد لا نخرج كما خرج هؤلاء المشركين ، وبين لنا صفات خروجهم فقال سبحانه : ولا تكونوا يا أمة حبيبى محمد (صلى الله

عليه وسلم) فى خروجكم إلى القتال كخروج أعدائكم ، الذين خرجوا بطرا ورياء ، والبطر : هو الأشر بغيا وطغيانا بالعوافى وبالأموال افتخارا على خلق الله تعالى .

(وَرِئَاءَ النَّاسِ)

و (الرياء) (والرئاء) قراءتان مشهورتان بأيهما قرأت أصبت ، والرياء : إظهار الطاعة وإخفاء المعصية، كما أن النفاق : إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، ودليل ذلك : أن أبا سفيان بن حرب أرسل إلى أبى جهل (إنكم خرجتم لإنقاذ العير والعير قد سلم فارجعوا إلى مكة) فقال أبو جهل : (لا واللات والعزى لا نرجع حتى نصل بدرا وننحر الجزور ونشرب الخمور وتغنينا المغنيات ونقهر محمدا ومن معه وثبت أن خروجهم : بطرا ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله ؛ فقدر الله القوى القهار أن ينحروا أنفسهم بسيوف المسلمين ، وأن يشربوا بدل الخمور نقيع الدم ، وأن تبكيهم النائحات بدلا من أن تغنيهم المغنيات

(عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

حكمة الإتيان بالفعل المضارع :

عطف الجملة الفعلية على الاسم، فإن المعنى هنا : خرجوا بطرا ورئاء الناس ويصدون ، وكان السياق يقتضى : صدا عن سبيل الله ، لحكمة عالية وهى أن الاسم يقتضى الثبوت والاستقرار ؛ لأن البطر والرئاء لازمتان لكفار قريش ولكل عنيد من الناس ، ولكن الصد عن سبيل الله لم يحصل منهم إلا بعد ظهور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاقتضى أن يؤتى بكلمة تفيد التجدد ، حيث أن الصد عن سبيل الله ليس من الصفات الفطرية فيهم لأنها حديث ببعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث كما نقول : فلان يأكل وينام أى يجدد الأكل والنوم فى كل حين ، فحسن عطف الفعل المضارع على الاسم هنا لبيان مزيد معنى لا يظهر إلا به .

(وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

يعنى : أن الله تعالى أحاط بعملهم قبل إيجادهم فى هذا الكون ؛ لأنه قدره ودبره وبقدرة وحكمة أبرزه وجعلهم أسبابا له ، وفى هذا البيان تحذير من الله تعالى لنا لئلا نتشبه بهم حتى فى أعمالهم ومعاملاتهم وعوائدهم وعباداتهم وخروجهم ودخولهم ولا فى ملابسهم التى جعلوها طقوسا لدينهم .

قوله تعالى : (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)) .

إبليس يطمأن قريشا ثم يفر هاربا :

الواو : للعطف ، والجملة معطوفة على خرجوا ، والمعنى : واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم (وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ) ، وهذه الحادثة التى يخبرنا الله تبارك وتعالى عنها أن قريشا عند خروجهم للعير تذكروا ما بينهم وبين بنى بكر من كنانة من العداوة ، وخافوا أن يهجموا على مكة بعد خروجهم منها فهموا بالبقاء ، فجاء إبليس متمثلا بسراقة بن مالك من زعماء كنانة وقال لهم : ما أخبرنا الله به عنه بقوله : (لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) ومعنى ذلك أنكم فى قوة ومنعة وها أنا معكم بصناديد قومى ولا قوة للناس على قهركم ، فاطمأن قريش بسراقة لأنه عظيم قومه ، وخرجوا وهو معهم يشجعهم حتى وصلوا إلى بدر وهو يحمل رايته ووراءه نفر من أقاربه حتى وصلوا بدرا (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ) أى جيش قريش وجيش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان سراقة الذى هو إبليس واضعا يده فى يد عظيم من قريش (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ) أى : وقعت عين كل فئة على الأخرى جذب القرشى يد سراقة ، فسل يده من يده ولطمه فى صدره ، وقال : دعنى فإنى أرى مالا ترون وفر هاربا ، فقال له القرشى : (ما هذا الغرور الذى أوقعتنا فيه) فلم يلو عليه ، وذلك لأن إبليس الذى تمثل بسراقة قد رأى جبريل بين يدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعه ألف ملك فولى منهزما وقال ما أخبرنا الله به عنه .

(إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

وتأويل هذه الآية : أن إبليس لما رأى أنه تجاوز ما حده ربه له من أن يقف لنا على الصراط المستقيم وأن يأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وأن يشاركنا فى الأموال والأولاد فقط ، وأنه ليس له أن يحارب ملائكة الله تعالى انقلب على وجهه فزعا قائلا : (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) لأنه لعنه الله أضله الله على علم ، فهو يعلم حق العلم عظمة الله وكبرياءه ، وإنما كان ضلاله حسدا منه لآدم أعاذنا الله من الحسد .

(وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذا من كلام إبليس ولكنه لا يعمل بعلمه ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهو من جنود إبليس ، وهذه الآية بيان من الله لأهل الإيمان أن يخالفوا ما كان عليه كفار قريش ، وأن يسارعوا إلى إطاعة الله وإطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : ((إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)) .

واذكر إذ يقول المنافقون - وهم قوم ممن أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان - والذين فى قلوبهم مرض : هم جماعة من أهل مكة ممن أسلموا ولابس إيمانهم الشك والريب ، وخرجوا مع كفار مكة قائلين فى أنفسهم إذا وجدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى قوة ومنعة تركنا المشركين وذهبنا إليه (صلى الله عليه وسلم) وإلا أقمنا ، فلما التقى الجمعان قال الذين فى قلوبهم مرض وهم من مكة ، والمنافقين وهم من المدينة عندما التقى الجمعان وتحققوا قلة المسلمين وكثرة الكافرين ما أخبرنا الله به عنهم : (غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ) أي أن مرضى القلوب والمنافقين قالوا : إن المسلمين صدقوا وعد الله تعالى بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فثبتوا أمام هذا الجيش الجرار مستميتين لغرورهم بما علموه من نعيم الجنة ، وأبى المنافقون أن يقاتلوا المسلمين ، وأبى مرضى القلوب أن يقاتلوا مع المشركين لكنهم قتلوا جميعا .

وهذا البيان من الله تعالى لما عليه المنافقون ومرضى القلوب ، الذين يسارعون إلى تحصيل حظوظ الحياة الدنيا من غير مراقبة لأحوال الدين ، والمنافقون يخفون عداوة المسلمين ويظهرون محبتهم خوفا من سطوتهم ونفوذ كلمتهم وهم شر البرية ، لأنهم أضر علينا من الكفار الذين لا يوفق الله كيدهم .

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

هذه الآية خبر من الله تعالى تبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن من حسن الثقة بالله وكمال التوكل عليه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أي : يسلم جميع أموره لله تعالى فإن الله (عَزِيزٌ) أي : قوى قادر قاهر عند نصره أولياءه وقهره أعدائه (حَكِيمٌ) أي : ينصر المؤمنين ويؤيدهم بحكمته ويهلك الكافرين وينتقم منهم بحكمته .

قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50)) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يخبر رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) مخاطبا له بقوله سبحانه : (وَلَوْ تَرَى) الواو هنا للحال ، و(لَوْ) حرف امتناع ، و (تَرَى) بمعنى تنظر (إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) أى : وقد قبض الملائكة أرواح الذين كفروا (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) و (وُجُوهَهُمْ) جهة الأمام من أجسامهم ، و (أَدْبَارَهُمْ) جهة الخلف من أجسامهم ، وقال بعضهم : إن الضرب على الوجوه وعلى الدبر وهو أخذ بظاهر اللفظ ، والتأويل الأول أقرب ؛ لأن المراد وقوع أليم العذاب بهم ، وذلك لا يكون إلا بضرب جميع الجسد ، واختلفوا فى وقت هذا الضرب فقال بعضهم : هو يوم بدر لأنه تقدم ذكره، وقال بعضهم : هو يوم القيامة عند سوقهم إلى جهنم ، وقال بعضهم : هذا الضرب لكل كافر عند موته وكل ذلك جائز .

وفي هذه الآية تخويف شديد لأهل الإيمان يوجب عليهم دوام المراقبة ، خوفا من دخول الشرك الخفى عليهم . قال (صلى الله عليه وسلم) (إن الشيطان ليجرى فى ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه) .

هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول الملائكة للكافرين يوم بدر أو يوم القيامة أو عند موتهم كما تقدم ، وعذاب الحريق أى : العذاب المحرق المؤلم .

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

قوله تعالى : (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)) .

هذه الآية من قول الملائكة أيضا ، وهذا العذاب إنما هو على الشرك بالله ، واليد لم تشرك فلزم أن نتأول الآية ، وتأويلها أن (اليد) كناية عن القدرة والقوة ، والقدرة إنما هى فى القلب ومنه تصدر للجوارح ، وتكون المعنى بما عقدتم قلوبكم على الكفر وقدمتموه لأنفسكم ونسب التقدم سبحانه إليهم سبب لإحداث تلك الخطايا بعد أن بين الله لهم محابه ومراضيه بالمعجزات والقرآن على لسان حبيبه محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

الظالم : هو من تصرف فى ملك غيره تصرفا يضر بالمالك، وأما المالك إذا تصرف فى ملكه بعد أن بين سبل نيل المنافع والخيرات ، وأعان على الفوز بها ، وأقام الحجج الناصعة على أنها خير وسعادة ، وبين طرق الخسران ومناهك الهلاك ،وأنذر وتوعد ثم أحسن إلى من أطاعه وعاقب من عصاه ، فإنه لا يكون ظالما أبدا بل يكون متفضلا عادلا ، وتنزه ربنا وتعالى عن الظلم ؛ لأنه جل جلاله خلق الخلق من العدم وأمدهم بما لا قوام لهم إلا به من نعم لا حصر لها ولا عد، وبهذا أثبت أنه سبحانه تنزه عن الظلم منه وعليه ؛ لأنه لا يخاف وقوع مضرة عليه من غيره فينتقم منه ظلما .

قوله تعالى : (كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يخبرنا عن كفار قريش أنهم كذبوا رسوله (صلى الله عليه وسلم) وحاربوه دائبين ، أى : مستمرين (كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ) أى : كعادة آل فرعون فى تكذيب موسى عليه السلام ومحاربته (كَدَأْبِ) من قبلهم من قوم نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم ، فانتقم الله منهم بالإغراق أو بالخسف أو بالمسخ أو بالطاعون، وانتقم من كفار قريش بالسيف ، لأنهم استمروا فى عملهم كدأب آل فرعون ومن قبلهم .

ومعنى الآية الشريفة : أى : كعادة آل فرعون التى استمروا عليها ومن قبلهم كفرا بآيات الله أى برسله وحججه فأخذهم الله تعالى بالغرق فى عهد نوح عليه السلام وفى عهد موسى عليه السلام وبالخسف والمسخ مع غيرهم ، وهذا الأخذ الانتقامى بسبب ذنوبهم التى هى الكفر بالله وتكذيب آياته ، والله قوى فى بطشه وانتقامه وإهلاكه أعداءه (شَدِيدُ الْعِقَابِ) اى شديد فى عقوبته إذا أخذ الكفار لم يفلتهم ، أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من شديد عقوبته جل جلاله .

قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53)) .

إن أحباب الله المقربين أعلمهم الله أسباب تغير النعم ونزول النقم ، فتراهم يتقون تلك الأسباب ويحذرون غيرهم من وقوعها ، وسبب نزول هذه الآية : أن الله تعالى أنعم على قريش بنعمته العظمى وهى سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد (صلى الله عليه وسلم) لأن الله جل جلاله بعثه رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر من قول الله للمهاجرين والأنصار (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) .

فنعمة الله علينا هى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نعوذ بوجه الله الكريم من تغيير تلك النعمة ومن مخالفة سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فلما لم تقبل قريش نعمته ولم تشكرها بالإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم سلب منهم الانتفاع بتلك النعمة وأهلكهم كما أهلك آل فرعون قبلهم وهى سنة الله الماضية فى خلقه .

عدم القيام بشكر النعمة موجب لسلبها :

وهذه الآية الشريفة : من مخوفات القرآن ، فإن كل إنسان أنعم الله تعالى عليه بنعمة ولم يشكرها بالقيام لله بما أمره فيها سلبها منه نعوذ بوجه الله الكريم ، وفي الحكمة : (إن الله يعطي النعمة بفضله ويسلبها بعدله ، ومن أحب دوام النعمة ومزيدها شكر الله عليها فحفظ له النعمة وزاده) قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) وما ترك من الجهالة شيئا عبد أنعم الله عليه فاستعمل نعمته في مغاضب الله فاستحق سلبها في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فإن واهب النعم تفضل بها ليشكر ويذكر لا لينكر ويكفر ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره ، أمامه أبواب الخير مفتحه ويسدها في وجهه ويفتح على نفسه أبواب الشر، والإشارة عائدة إلى عاجل عقوبته لقريش في الدنيا لكفرهم به سبحانه ولتكذيبهم بآياته والقوم هم المجتمع من الناس في بلد أو أكثر .

(حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) أى : حتى يخالفوا أوامر الله ونواهيه (وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أي : إنه سبحانه وتعالى يسمع كلام الألسنة وخواطر النفوس ويعلم السر وأخفى وفي هذه الآية : تهديد ووعيد لأهل الكفر به سبحانه .

قوله تعالى : (كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)) .

تأويل هذه الآية ـ وقد تقدم بيان فيها : أن الله تعالى يقول : إن قريشا تعودوا المسير في طريق آل فرعون ومن قبلهم من التكذيب بآيات الله تعالى ومن الكفر به ومن محاربة رسله ، فأهلك الله قريشا لتكذيبهم بآيات الله بالسيف كما أهلك من قبلهم بالغرق والرجفة والمسخ والخسف وبحبس الأمطار والضفادع والقمل ، وبغير ذلك من أنواع البلايا التي انتقم الله بها منهم وهي سنة الله الماضية في خلقه ، فمعنى (كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ) أى : كالعادة التي دأب عليها آل فرعون مستمرين هم ومن قبلهم من الأمم ؛ فأهلكهم الله لتكذيبهم بآياته كذلك فعل كفار قريش فدأبوا مستمرين على التكذيب بآيات الله وعلى الكفر به فأهلكهم الله كما أهلك من قبلهم ولكن بالسيف ؛ لأن خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم) بعثه الله رحمة للعالمين وقد يكون للعرب ولأبنائهم من بعدهم خلف يوحدون الله تعالى ، وأما من قبله (صلى الله عليه وسلم) من الأمم فإن الله استأصلهم لتظهر مزية خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، لتقوم الحجة أن الله بعثه رحمة وأنه خاتم الرسل فلا نبي بعده ، فلو استأصل قومه جميعاً لما بقي من يبلغ رسالة رسوله ، فانتقم الله من أعداءه وأعداء رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالسيف وأبقى من سبق في علمه لهم الحسنى فأسلموا ونصروا الدين ونشروه في الآفاق في عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

(كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ)

أنزلت تلك الآية بعد نظيرتها لفرق في اللفظ والمعنى ، فليست مكررة بل هي لمزيد بيان ، فالآية الأولى مجملة وهذه مفصلة ، وفي الأولى : (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) وفي الثانية: (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) وفي التكذيب بآيات الله دليل على أنهم كذبوا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنكروا رسالته ، وفي الأولى كفروا (والكفر) جحود الله تعالى والتكذيب بآياته .

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) فأهلك بعض الأمم ـ كما قدمنا ـ بالرجفة والخسف والمسخ والطاعون وأهلك بعضهم بالغرق ، ولكنه ذكر فرعون مع أنه مذكور مع من أهلكهم تشنيعا عليه لما ارتكبه من دعوى الألوهية والربوبية ، قال الله مخبرا عنه : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وقال تعالى مخبرا عنه أيضاً ؛ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) فناسب ذكره خاصا بعد ذكره عاما .

(وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ) أى : وكل الأمم الذين قدر الله أن يهلكهم من كفار قريش ومن قبلهم كانوا ظالمين لأنفسهم لكفرهم وتكذيبهم بآيات الله . قال تعالى : (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[1] .

قوله تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55)) .

---

(1) آل عمران : 117 .
(2) الإسراء : 65 .

تأويل هذه الآية : أن شر ما يدب على الأرض من الإنسان فما دونه هم الذين كفروا بالله ورسله ، وهم شر على أنفسهم وعلى غيرهم من الوحوش والأفاعى والجوارح من الطير بل ومن كل حيوان مفترس ، لأن أذيتهم ليست بالقوة الجسمانية فقط ، بل بالقوة الجسمانية والقوة الناطقة وبالقوة المفكرة والمدبرة وبالعقل المكتسب ، فإن رجلاً شريرا قد يكون شراً على الناس من ألف سبع لأنه يفسد أخلاقهم ويفرق مجتمعاتهم ويقودهم إلى المعصية والخصومات والمشاحنات، ولو دخل ألف سبع بلداً لما أضروها إلا فى دجاجها وبعض ماشيتها ، وقد يسلمون من السباع بغلق أبوابهم عليهم ، أما الكافر بالله المكذب بآيات الله فإنه شر حتى من الشيطان الرجيم ، دليل على ذلك أن الشيطان لا عمل له إلا الوسوسة ، فإذا وسوس فى قلب المؤمن والمؤمن محفوظ بعناية الله من وسوسته فلا يضره الشيطان ولو اجتمع ألف شيطان على مؤمن محفوظ لا يؤثرون عليه . قال تعالى :(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)[2] ولكن الكافر المكذب بآيات الله إنسان مخادع يمكنه أن يخدع الناس بكل أنواع الخدع ، فيفتح أبواب الفتن ويوقع الناس فى الشرور . حفظ الله المسلمين جميعا من شر الكافرين .

الآية ليست تكرارا :

وقد تقدم الكلام فى معنى قوله تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ) فى الآية 23 من السورة وليس هذا تكراراً للآيات ولكنه بيان جلى لما عليه أهل الكفر بالله تعالى (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) لخبث طباعهم ؛ لأن نفوسهم خلقت من أسفل سافلين فغلفت قلوبهم وصمت آذانهم وعمت أبصارهم وبصائرهم كما أخبر الله عنهم فى الآية السابقة بقوله تعالى : (الصم البكم الذين لا يعقلون) فنفى الله عنهم العقل فى الآية الأولى ، ونفى عنهم الإيمان فى هذه الآية بلفظ المضارع الذى يفيد التجدد والاستمرار إلى يوم القيامة ، وفى هذه الآية تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذى يحزنه عنادهم ونزاعهم وتعصبهم لآلهتهم الباطلة .

قوله تعالى : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : بنو قريظة ونظائرهم من اليهود ، لأن بنى قريظة عاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن يكونوا له أنصارا فى وقت الحرب والسلم فخانوا ونصروا قريشا فى غزوة الخندق ، بل وخانوا مرارا كثيرة ، وهذا معنى قوله : (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ) وهم قريظة (ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) أى : إن هؤلاء المخادعين بعد أن يعاهدوا النبى (صلى الله عليه وسلم) لا يتركون بادرة من بوادر الغدر والخيانة إلا سابقوا إليها دائبين فى تغير ما بأنفسهم نزوعا إلى الباطل ونقضا للعهود (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) أى : لا يتورعون عن الخيانة .

قوله تعالى : (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57)) .

أى : تدركنهم فى الحرب متمكنا منهم (فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) أى : بددهم وفرقهم ومزقهم ، والمعنى : فشردهم تشريدا يكون رهبة وخوفا لمن خلفهم ، وهذا التشريد يكون به تبديد وتمزيق وتفريق من خلفهم من نظرائهم كاليهود والمشركين، وهذه الآية عمل بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى بنى قريظة وكفار قريش ، فإن بنى قريظة نصروا قريشا فى واقعة الخندق فخانوا بذلك عهودهم ، وقريشا خانوا العهود بقتلهم بنى خزاعة الذين كانوا حلفاء رسول الله فى أيام الهدنة ، فانقض رسول الله ومن معه على الفريقين قبل أن يعلنهم بالحرب ، لأنهم نقضوا عهدهم معه وهذا حكم الله فى كل عدو لنا نقض عهده ؛ فإنا نقاتلهم بدون إعلانهم وعلى غرة منهم ، فواجب إمام المسلمين أن ينفذ هذه السياسة الحربية الحكيمة ، وكم بين القرآن من السياسات والحكم العمرانية التى بها سعادة المسلمين إذا تمسكوا بها ونفذوها ؛ لأن العمل بتلك الحكم العالية كبح لجماح النفوس الشريرة ، وهذا حكم الله فيمن ظهرت خيانته . وأما حكمه فى أهل النفاق الذين ينقضون عهودهم بالكيد والختل فقد بينه سبحانه فى الآية التالية :

قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58)) .

الخوف هنا : هو غلبة ظن بأن يظن (صلى الله عليه وسلم) خيانة قوم بعهدهم ، أو تقوم الحجة الظاهرة على ذلك ، فإن الله تعالى أمر نبيه أن ينبذ إليهم على سواء ، أى : يعلنهم بنقضه عهدهم وبالحرب حتى يعلموا بذلك فيتجهزوا للقاء ، وهذا حكم الله فيمن لم يظهروا للعيان نقض عهدهم ، وفى ذلك حكمة يدركها أهل العلم فقد بين الله خيانتهم بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) وما لم يبينه الله تعالى أن القوم الذين يظهرون الوفاء بالعهد وهم يخونون سرا فإن إنذارهم بالحرب ربما أظهر كذب الخبر عنهم بالخيانة أو أرجعهم إلى الوفاء بالعهد والتوبة مما كانوا أظهروا ، كما فعلت قريظة مع رسول الله ؛ فإنهم بعد أن عاهدوه (صلى الله عليه وسلم) ما لئوا أبا سفيان مظاهرة على رسول الله ، فلما خافوا رجعوا نادمين ، ثم خانوا ثم رجعوا نادمين ، ثم خانوا فى غزوة الخندق خيانة لا تغتفر ، فباغتهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنزلهم على حكم سعد (عَلَى سَوَاءٍ) حتى يستوى علمهم بالحرب بعلمك به وفاء بعهدهم لله تعالى .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

أى : إنه سبحانه وتعالى لا يحب من غدر وخان العهد ، ومالا يحبه الله تعالى لا يحبه المؤمنون ، فإنهم مطالبون مكلفون أن يطلبوا من السر النية بالإخلاص ومن الجسم العمل بالاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)) .

أى : ولا يحسبن كفار قريش ممن كان معهم العير وافلتوا يوم بدر من القتل (سَبَقُوا) أى : نجوا منا ولحقوا بأهلهم فى أمن (إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) أى : لا يعجزوننا وأنا مدركوهم فمهلكون من سجل عليهم القضاء بالكفر ومنجون من سبقت لهم الحسنى.

قوله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60)) .

(القوة) هنا : هى الرمى ، فبحسب زمانهم النبل ، وبحسب زماننا (المسكتة) البندقية والمدافع والمقذوفات النارية، وهى القوة التى عناها الله تعالى .

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

حبس الخيل ، وقد ورد أن طعامها وشرابها وروثها وبولها حسنات إذا حبست فى سبيل الله ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يركبون ذكور الخيل فى الصف، وإناثها عند مباغتة العدو أو مفاجأته لأن الذكور تصهل وهم لا يحبون إشعار الأعداء بصهيل الخيل فيركبون إناثها فى المباغتة والمفاجأة ، وأما فى الحرب فذكور الخيل أقوى فى الكر والفر من إناثها (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) أى : تخيفونهم من صولتكم .

(وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ)

أى : وآخرين من المنافقين دون هؤلاء القوم من الظهور والعداوة لا تعلمونهم لأنكم ترون منهم المسالمة والنفاق فتظنونهم موالين والله يعلم أنهم أعداء ، وإعداد القوة ورباط الخيل يرهبهم منكم فيذلون لكم (اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) أى : إن الله العليم بما تخفى الصدور يعلم ما هو عليه فى الحقيقة ونفس الأمر مهما تخفى ضمائرهم، وفى هذه الآية تهديد لهم ويقظة لأهل الإيمان، وبعد أن بين سبحانه وتعالى ما عليه أهل الكفر وأهل النفاق وبين السياسة الحكيمة التى يجب أن يكون عليها المؤمنون حث أهل الإيمان على بذل ما يطيقونه من الأموال والخيل والسلاح إعلاء لكلمة الله تعالى ونصرة لرسوله (صلى الله عليه وسلم) .

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ)

وهذه الآية الشريفة : بيان للمؤمنين أن كل نفقة أنفقت فى سبيل الله كثرت أو قلت فإنها ترد إليهم وافية زاكية فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، فإن (من) هنا للتبغيض (وشئ) نكرة مبهمة تصدق على القليل والأقل وعلى الكثير والأكثر

. ومعنى (يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) أى : يرده الله إليكم وافيا ناميا فى وقت الحسرة والندامة يوم العرض الأكبر على رب العزة (وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (الواو) للحال ، والآية خبر من الله تعالى لنا أنه تنزه وتعالى عن أن يظلمنا نقيرا أو قطميرا أو فتيلا ولكنه جل جلاله يعدل بالحق ويتفضل بالإحسان .

خير النفقة :

وهذه الآية بيان من الله تعالى للمؤمنين ، بين به ما يلزمهم فى أموالهم بعد أن بين ما يتعلق بالجهاد فى سبيله وغيره ، وخير نفقة ينفقها المؤمن نفقة فى سبيل الله تعالى وخير وجهة ما ينفق فى إعلاء كلمة الله وإحياء سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بجهاد الأعداء أو بنشر العلوم النافعة بين الأمة ، وتكون النفقة لمساعدة العلماء ومساعدة طلبة العلم حتى يتفرغوا لبيان ما خفى من الكتاب والسنة وتجديد ما اندرس ، وهذا أول فريضة وجبت على المسلمين وهى الأصل ، والأعمال فى العبادات والجهاد بالسيف فرع منها ، والجاهل لا عمل له وإن ملأ بطاح الأرض والسماء عبادة .

قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)) .

بعد أن بين الله تعالى أحكام من نقضوا عهدهم الذى عاهدهم به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وحكم سبحانه عليهم بالمباغتة على غرة ، كما فعل عليه الصلاة والسلام فى فتح مكة وخيبر وبنى قريظة ، وحكم جل جلاله على من نخاف منهم خيانة بنبذ عهدهم وإعلانهم بالحرب رعاية للعدل الذى يحبه الله حتى يكونوا على استعداد ، وقد بينت حكمة ذلك فيما تقدم ، وفى هذه الآية بيان للحكمة التى ذكرتها ومعنى (جَنَحُوا) أى : طلبوا ورغبوا ، وهى بتثليث تشكيل النون فتفتح وتضم وتكسر فى المضارع ، و(لِلسَّلْمِ) أى : للمسالمة وهى بكسر السين وفتحها (فَاجْنَحْ لَهَا) أى : فارغب فيها ومل إليها متحفظا من غدرهم وكيدهم (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أى : فوض أمورك فيهم إلى الله تعالى الذى يعلم نواياهم ومقاصدهم، فإنه سبحانه وكيلك الذى لا يكلك حتى ولا إلى نفسك وما عليك إلا أن تأخذ بظاهرهم (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أى : وأنت على يقين حق أن وكيلك الذى توكلت عليه سميع لأقوالهم عليم بخفى أسرارهم قادر على الانتقام منهم وتمكينك منهم وتمكينك من النصر عليهم .

قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)) .

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ)

أى : وإن يريدوا أن ينقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته متربصين لك الدوائر فإن الله يكفيك شرهم وكيدهم ، وهو حسبك ووليك يعصمك من الناس ولو اجتمع عليك من بأقطارها من الإنس والجن (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) أى : أن الله الذى هو حسبك هو الذى أيدك بنصره يوم بدر مع قلة العدد والعدد ، وهذا النصر برهان على أن القوة لله جميعا .

نصر الله بأسباب ظاهرة وباطنة :

ولما كان النصر من الله تعالى يكون بأسباب باطنة وظاهرة ، ومن الأسباب الباطنة : إمداده لكم بالملائكة ومنها كلمة كن ، ومن الأسباب الظاهرة الريح قال (صلى الله عليه وسلم) : (نصرت بالصبا وهلك قوم عاد بالدبور) ، ومنها طير أبابيل والطاعون ومنها جنود الله المؤمنون وهم من نصر الله تعالى ، ومعنى الآية : أن الله تعالى أيده بجيش من الملائكة (هو الذى أيدك بنصره) يخبرنا عنه بقوله وبجيش من اوليائه المهاجرين والأنصار وكلهم من نصر الله .

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) و (الألفة) هى : التوادد والتحابب والتعاون على البر والتقوى، أثبت سبحانه وتعالى التأليف بين القلوب إليه جل جلاله ؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فهو الذى يخلق فيها الحب والود واليقين والصبر والرضا والخشية والرغبة والرهبة وتصريف النوايا والمحاسبة والمراقبة وغير ذلك من معانى الشهود والوجود والتوبة

والإنابة ، فلا يمكن أن توجد معنى من تلك المعانى فى القلب إلا والله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها فيه ونشط الجوارح لها كما قال سبحانه : (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) [1] وإذا كان الحق سبحانه وتعالى خلق أعمال العباد جميعها فمن باب أولى تكون أعمال القلوب مخلوقة له سبحانه .

فضل الأخ فى الله :

وهذه الآية : برهان على أنه سبحانه هو الخلاق العليم، ومن علامة ولايته للعبد أن يحس من نفسه بحب إخوانه فى الله حتى يشعر بتأليف الله لهم فيكون الأخ فى الله أعز على العبد من ماله وولده، وهى جذبة الحق للخلق بسابق المحبة ، وقد ورد أن الأخ فى الله إذا تقابل مع أخيه فى الله فصافحه وقبض على يده غفر الله ذنوبهما، وكيف لا ؟ والله تعالى يقول : (وألف بين قلوبهم) فإن تأليف القلوب دليل على إحسان علام الغيوب ، وليس فى الأرض أنفاس نفتح لها أبواب السماء ونطيب بها معالم الأرض ويرضى الله بها عن العبد مثل أنسه ومسرته بإخوانه فى الله تعالى، بل ولم يرى إبليس كئيبا حزينا إلا فى مواقف : يوم عرفة عند الموقف ، وفى صفوف الجهاد ، وفى أنس الأخ بأخيه فى الله ؛ فإنه يلطم وجهه ويضع التراب على رأسه حزنا وهو يقول : (أفسدت قلوب هؤلاء القوم سنين طويلة فبدل الله ما ارتكبوا من السيئات والكبائر في نفس واحد) ، وكفى الأخوان فى الله قول الله تعالى : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) وفى هذا المقام يكون الأخوان على يقين أن هذا الفضل من الله تعالى برهان على حبه لهم، ويكون هذا أكمل إذا كانت الألفة فى طاعة وتقرب إلى الله وفى شوق إليه ، وقد وردت الآيات والأحاديث الصحيحة بالثناء والبشائر للمتحابين فى الله المتعاونين على طاعته سبحانه وإعلاء كلمته وتجديد سنن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وفى صحيح البخارى ومسلم وموطأ مالك أحاديث صحيحة كلها بشائر للمتحابين فى الله .

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

هذه الآية الشريفة حجة قائمة للمتحابين فى الله أن تودهم وتحابهم وتآلفهم فعل الله تعالى ، ولو أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنفق ما فى الأرض جميعا من ذهب وفضة وماشية ومتاع وعقار ليؤلف القلوب ما ائتلفت ، هنا يجب علينا ان نشكر الله تعالى وأن نسأله دوام الحب فى الله والمزيد من الحب لنكون محبين له حتى يحبنا ، والحق أقول أن كل محب لله محبوب لله ؛ لأن الله تعالى يقول : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1] فسبقت محبته لنا وكتب الإيمان فى قلوبنا وزينه لنا وأيدنا بروح منه (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)[2] .

(وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

محبة الناس ومحبة المؤمنين :

حجة لأهل مشاهد التوحيد العالية وهى أن هذا التآلف والتحابب فوق تآلف وتحابب الناس لأسباب دنيوية مادية ولا يمكن أن يقوم به إنسان لآخر ولو أعطى ملك الأرض ، وليس فى الإنسان حقيقة بشرية برياضتها وتزكيها يمكنها أن تتجمل بتلك المعانى أبدا ، لأن الإنسان له حد محدود فى المحبة الكونية فإذا أكمل فيها بذل قليل ماله وقليل جاهه وقليل صحته ، ولكننا نرى المؤمن إذا أحب أخاه فى الله فداه بماله وأهله وقد تبلغ المحبة به حتى يفديه بنفسه غير معلل بعلة أو جزاء ، ولا يكون ذلك إلا من الله تعالى ، ومن لم يذق طعم محبة الله ينكر علينا هذا كله لجهالته به، (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) فأهل المحبة فى الله هم الذين أخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنهم بقوله : (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها أتلف وما تناكر منها اختلف) يشير هذا الحديث الشريف إلى التعارف يوم الست بربكم ، فإن من سبقت لهم الحسنى من الله إذا أنستهم شواغل الكون ومقتضيات مطالب الجسم (يوم ألست) إذا ذكروا تذكروا فعشقوا فحضروا حضورا لا غياب له ، وأما من لم تسبق لهم الحسنى إذا ذكرتهم الملائكة لا يذكرون ولا يحضرون ، ودليل ذلك موسى بن عمران عليه السلام وموسى السامرى ـ قبحه الله تعالى ـ فإن الكليم عليه السلام رباه فرعون والسامرى رباه جبريل ومع ذلك فشتان بين من تذكر ومن لم يتذكر .

---

(1) المجادلة : 22 .
(1) المائدة : 54 .
(2) النور : 40 .

(إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أى : أن الله تعالى عزيز أى قوى قادر قهار إذا انتقم من أعدائه وأعدائك انتقم بعزة وقهر (حَكِيمٌ) أى أنه قدر ما قدره بحكمه وأبرزه بعزه وقوة .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)) .

هذه الآية الشريفة عامة والآية السابقة خاصة فى غزوة بدر ، وقد نزلت قبل بدر بعد أن ذكر الصحابة بما كانوا عليه قبل الإسلام من التهاجر والتقاطع والتدابر والفتن الماحقة والعداوة المتأصلة بين الأوس والخزرج وما من الله عليهم ببعثة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مما بينه فى قوله : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)، خاطب الله رسوله بقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : يكفيك ويعصمك من الناس ؛ لأن أعدائك ينصرون الباطل والباطل لا قوة له ، وأنهم لا طمع لهم فى أجر ولا ثواب وذلك مما يضعف قلوبهم ، وأنت تنصر الحق القوى القاهر الذى هو حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وعلى ذلك فتكون (من) معطوفة على الكاف فى حسبك فى محل جر، وجائز أن يكون المعنى : (حَسْبُكَ اللَّهُ) ومن أمدك بهم من المؤمنين الذين أقامهم الله لنصرتك وتأييدك فتكون (من) معطوفة على لفظ الجلالة فى محل رفع و(اتَّبَعَكَ) أى : اقتدى بك وصدقك فيما جئت به من عند الله .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65)) .

معنى هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى يأمر حبيبه (صلى الله عليه وسلم) بحض المؤمنين وحثهم على القتال مبينا سبحانه لهم أنه معهم يمدهم بحوله وقوته وطوله فيجعل العاقبة لهم مهما كانت كثرة عدد الكافرين وقوة عدتهم وكانت قلة المؤمنين ، فإن الله تعالى وعدهم بالنصر وجعل لكل مؤمن واحد عشرة من الكافرين بحكم صريح مقيد بالعدد ، بدليل قوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بين الله حكمة قوة المؤمنين وخذلان الكافرين بقوله تعالى : (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) والإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى قوله : (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ) أى : ذلك الحكم لأنهم لا يفقهون من الله تعالى ما أوحى به إلى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وبعدم فقههم له تكون همتهم فى الجهاد نزعة شيطانية لا تلبث إلا أن تزول من هيبة المؤمنين التى جملهم الله بها من قوة اليقين فى نيل النصرة والظفر من الله تعالى كما وعد، أو من نيلها مع الفوز بالجنة والنعيم المقيم فى روضات الجنات .

قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : أن الله تعالى لما أمر المؤمنين وهم قليل فى الجهاد حرم الفرار على المسلم أمام تسعة من الكفار أو أمام عشرة ، فإن زادوا عن ذلك وفر متحيزا أو متحرفا كان مجاهدا ، ولما كثر المسلمون خفف الله الحكم عليهم فى الجهاد ، وعلى هذا فتأويل الآية : (الْآنَ) بعد كثرتكم عددا وتفوقكم عدة خفف الله عنكم حكم الجهاد فيحرم على المسلم أن يفر من أمام اثنين ، ولا حرج عليه إذا فر أمام ثلاثة بدليل قوله تعالى : (فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ) .

(وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا)

علم الله تعالى ذاتى سابق :

هذه الآية من الله تعالى لفائدة الخبر وليست للزوم ؛ فإنه سبحانه وتعالى يفيدهم علما بأنه جل جلاله يعلم ما هم عليه ، ويعلم الكليات والجزئيات بعلم ذاتى سابق ، لا يتوقف علمه جل جلاله بالجزئيات على إحداثها لأن الذى يعلم الجزئيات بعد إحداثها يكون علمه حادثا ، وهو ـ تنزه وتعالى ـ ليس كمثله شئ فى كل شئ أى أن نزاهته فوق الأشياء وفى كل الأحوال.

ومن تأول الآية الشريفة فى قوله : علم أن فيكم ضعفا ، وفى أمثالها من الآيات أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات إلا بعد إحداثها يكون قاس الغائب بالشاهد ولا مناسبة بين الخلاق العظيم والمخلوق الحقير، وقد كان بعض الصحابة يجد فى الحكم الأول الذى يفرض على المؤمن الثبات أمام عشرة من الكفار مشقة عليهم فرحمهم الله وهو أرحم الراحمين وخفف عنهم ، وليست الآية ناسخة لما قبلها ؛ لأن النسخ لا يدخل فى الإخبار ، ولأن الحكم يدور مع حكمته ، فلو قدر وصار المسلمون فى حالة تشبه حالة غزوة بدر للزم الإمام أن يعمل بالحكم الأول حتى يكثروا فإذا كثروا عمل بالتخفيف .

(فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

هذه الآية شرطية تقابل الآية الشرطية التى قبلها ، وهو التخفيف الذى تفضل الله به علينا بعد أن كان حكم الجهاد أن المسلم يهاجم عشرة من الكفار خفف الله عنا فجعل المسلم يهاجم كافرين أو يدفعهما ، وليست هذه الآية ناسخة لما قبلها ولكنها وسعة من الله تعالى وللإمام أن يتصرف فى هذين الاثنين حسب معطياتها عند كثرة المسلمين أو قلتهم (فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَة) والصبر : هو تجرع النفس مرارة الحكم بثبات ويقين . قوله تعالى : (إن الله مع الصابرين) أى : أنه سبحانه معهم بتأييده ونصره ، وفى قوله : (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) تفصيل وبيان جلى صريح لا يحتاج لتأويل.

قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67))

قصة أسرى بدر :

هذه الآية الشريفة : تأديب لرسول الله ولأصحابه فيما حصل منهم فى أسرى بدر ، فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جمع خيرة أصحابه وشاورهم فى الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله بنوا عمنا ومن أرحامنا وأن نأخذ منهم الفداء عسى الله أن يهديهم للإسلام أو يخرج منهم مسلمين ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله أخرجوك وآذوك ، والرأي عندى : أن تأمر على بن أبى طالب أن يقتل عقيلا أخاه ، وأن تأمر الحمزة بن عبد المطلب أن يقتل عباسا أخاه ، وأنا أقتل فيها من قرابتى ، ونقطع أعناق الباقى ، وقال عبد الله بن أبى رواحه رضى الله عنه : الرأى عندى أن نلقى بهم فى غيضة ونجعلها عليهم نارا ، فسكت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأعاد أبو بكر رأيه فاستحسنه رسول الله ورضى به الصحابة وقبلوا الفداء من الأسرى ، فطلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الفدية من العباس ، وكانت أربعين أوقية من الذهب ، فقال : يا محمد إنى رجل فقير لا أملك شيئا ، فقال : أنت الذى أودعت عند أم الفضل مالا وفيرا وأوصيتها أنك إذا قتلت فى بدر تعطى الفضل كذا فقال : والذى بعثك بالحق لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، ولكن استر على يا ابن أخى ، فلما قبلوا الفداء أنزل الله تعالى هذه الآية معاتبا ومؤدبا ، وجاء عمر رضى الله عنه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوجده يبكى ومعه أبو بكر فقال ما يبكيكما يا رسول الله ، إن كان مما يبكى بكيت وإن لم يكن يبكى تباكيت ؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كاد ينزل بنا عذاب لا ينجو منه إلا أنت ، ومعنى الآية : أن الله تعالى ينفى عن أى نبى كان أخذ الفداء من الأسرى (حتى يثخن فى الأرض) أى : يتمكن منها بقتل الكافرين وقتل الأسرى .

وقوله : (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) تأديب لهم ؛ لأن (تُرِيدُونَ) هنا بمعنى أتحبون العرض الزائل الفانى الذى هو عرض الدنيا والله تعالى يحب لكم الآخرة لأنها دار النعيم المقيم، ومن طلب النعيم المقيم فر من الدنيا وما فيها ليفوز بالخير الأبدى (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) يعنى : أن الله تعالى قوى قادر قهار يقهر أعداءكم و (حَكِيمٌ) فى أحكامه التى أمركم

بها فلا يأمر بحكم إلا وهو يتضمن حكمة وسرا لو انكشف لكم لتضاءلت الدنيا وما فيها فى أعينكم ولكن الله يحب من عباده الذين يؤمنون بالغيب ويسلمون له سبحانه وتعالى تسليما من غير أن يكون لهم رأى ولا هوى يؤولون به أحكامه .

قوله تعالى : (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68)) .

والمراد بالكتاب هنا : ما قدره الله أزلا من أخذ الصحابة الفدية ومن مغفرته لهم، وجائز ان يكون ذلك الكتاب الذى كتبه الله أن يكون الله غفر لأهل بدر كل ما فعلوا ، وجائز أن يكون ذلك الكتاب : ما قدره الله تعالى أن الصحابة أخذوا الفدية مجتهدين لأنه لم يكن هناك نص صريح ينص بقتل الأسرى.

قوله (لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) لما كانت (لَوْلَا) حرف امتناع لوجود ما منع مس العذاب لهم لوجود الكتاب الذى كتبه أزلا ، والمعنى : أن الله تعالى دفع عنهم مس العذاب لوجود ما كتبه الله أزلا من المغفرة لهم ، وفى هذه الآية يقظة من القلوب حتى لا يقدم المؤمن على عمل حتى يعلم أنه محبوب الله وإن لم يعلم ذلك سأل أهل العلم حتى يعمل على بصيرة .

قوله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)) .

(فَكُلُوا) هنا أمر للإباحة لا للوجوب و (مِمَّا غَنِمْتُمْ) أى : مما حصلتم عليه من أموال الكفار بعد قتلهم وهزيمتهم، وكانت محرمة على الأمم السابقة لأنهم كانوا إذا غنموا غنيمة وضعوها فى محل خال فتنزل نار تحرقها ، ولكن الله أكرمنا فاحل لنا الغنائم ولم تحل لغيرنا ؛ فقوله تعالى : (حَلَالًا طَيِّبًا) أى : أحلها الله لنا فصارت حلالا (والطيب) هو مالا ضرر فيه ويعين على شكر الله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى : اتقوا محارم الله والأخذ بالرأى والهوى بدافع الطمع (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) و(إن) هنا باسم الغفور الرحيم بشرى لهم بأن الله سبحانه غفر لهم تلك المعصية ورحمهم فبدلها حسنات .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)) .

سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن العباس بن عبد المطلب وعقيل ابن أبى طالب ومن كان معهما من الأسرى تألموا من الفدية ، فقال العباس : (يا رسول الله إنا أسلمنا فأعطنا العشرين أوقية من الذهب التى أخذتها منا فدية) ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لا نرد عليك ما كنت تعين به المشركين ولكن الله يعطيك خيرا منهما) فأنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى) وهم العباس بن عبد المطلب واتباعهم من أسرى بدر: إن كان سبق لكم فى علم الله خيرا يعلمه الله لكم ، فإن ما لا يعلمه الله لا وجود له وما يعلمه لابد وأن يوجد، وليس المعنى أن الله تعالى يخبرهم إن وجد فى قلوبهم خيرا يعلمه بعد وجوده كما فهم بعض المفسرين مستدلا بهذه الآية : إن الله تعالى لا يعلم الجزيئات إلا بعد حدوثها، فقد فهم خطأ ، والمعنى : ما بينت ومعناها أن الله يعلم لهم خيرا قدره فى أزله لابد يحدثه ويبرزه للعيان ، وإن لم يعلم فى قلوبهم خيرا قدره لهم ، فإن ما أخذ منهم من الفدية هو انتقام عاجل من الله لهم (فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) أى : إيمانا بالله ورسوله ورغبة فى جهاد فى سبيله وبغضا فى مساعدة الأعداء .

(يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)

أى : يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من رزق حلال واسع وتمكين فى الأرض بالحق فى الدنيا ، وتوفيق وهداية وعلم وعمل وإيمان ويقين بالآخرة مما به الفوز فى النعيم المقيم .

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

تقدم أن المغفرة هى الستر ، وحذف المفعول ليدل على مغفرة عموم الذنوب ما قبل الإسلام وما بعده مما لا عصمة فيه لغير الرسل عليهم السلام . (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى يستر الخطايا والذنوب (ورحيم) أى : يبدلها بإحسان منه وفضل ، وهنا قال العباس بن عبد المطلب : (إن الله وعدنى أن يؤتينى خيرا مما أخذ منى وقد أخذ منى عشرين أوقية من الذهب التى كنت أعددتها لمساعدة كفار قريش على محاربة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأبدلنى الله عشرين عبدا لضرب كل واحد منهم فى ألف دينار، وأعطانى زمزم وهى خير من أموال أهل مكة ، وإنى أطمع فى أن أفوز ببقية ما وعدنى به يعنى المغفرة) .

قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)) .

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يهدد كفار قريش وخصوصا من افتدوا ومن انهزموا فى غزوة بدر وأقارب من قتلوا منهم وغيرهم ؛ فيقول الله تعالى لخاتم الأنبياء مخاطبا له : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ) وإن (يُرِيدُوا) أى : يحبوا خيانتك أى : نقض عهدك (والخيانة) هى : الغدر (فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) (الفاء) هنا رابطة لجواب الشرط (فَقَدْ خَانُوا) أى : تحقق غدرهم وخيانتهم ونسب سبحانه خيانتهم إلى نفسه بقوله : (خَانُوا اللَّهَ) تهويلا للخيانة وبيانا للحقيقة التى يجهلونها ، فإنهم - قاتلهم الله - كانوا يكذبون بالله وبآياته وفى ذلك تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبيان للحقيقة فى نفس الأمر وانذار من الله لهم بفادح العقوبة على خيانتهم ؛ لأنهم خانوا الله (مِنْ قَبْلُ) أى : من قبل هذا العهد فى غزو بدر مع كثرة عددهم وعددهم (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) أى : نصرك عليهم ومكنك من دمائهم وأموالهم وأذلهم بالقتل والأسر والفداء (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) تقدم الكلام على هذه الآية إلا أنها تذكر لمقتضيات دعت إلى ذكرها ، والمعنى والله قادر قاهر يسرع بالانتقام منهم إذا خانوا بعد و(حَكِيمٌ) فيما قدره عليهم فلا يبرز إلا ما قدر ولا يقدر إلا لحكمة.

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)) .

افتتح الآية بحرف التوكيد تقوية للخبر ويقظة للقلوب حتى يكون الإصغاء إلى الآية أكمل وأتم (الَّذِينَ آَمَنُوا) أى : صدقوا الله ورسوله (وَهَاجَرُوا) أى : تركوا وطنهم الذى هو مسقط رؤوسهم وأهلهم وأموالهم وأولادهم حرصا على الدين وبعدا عن الفتن العمياء الصماء للكافرين ، أخرجت هذه الآية من آمن ولم يهاجر (وَجَاهَدُوا) والجهاد : هو بذل ما فى الوسع من النفس والمال ، إعلاء لكلمة الله تعالى وإظهار لدين الله على الدين كله ، وقوله تعالى : (بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) وقدم المال على النفس سبحانه ؛ لأن الإنسان قد يلقى بنفسه فى التهلكة حرصا على المال ، فالمال هو الخير وهو قيام تلك الحياة الدنيا وخصوصا فى الزمان الذى صار أغنياؤه بخلاء لا يخرجون زكاة أموالهم ، وصار حكامه ظلامه لا يراعون العدل فى أحكامهم ، وصار علماؤه حساده حرصا على الجاه والمنزلة ، وصارت نساءه أهل كيد لا يؤمن جانبهم ، فالأغنياء بخلوا بزكاة المال ، فكيف يجودون فى الجهاد ؟ ! والحكام يطلبون الناس فى جمع الدنيا ، فكيف يبذلون ما فى أيديهم لوجه الله ؟ ! فالجهاد حجة الله القائمة للمجاهدين أنهم مؤمنون حقا ، ومعلوم أن الصلاة عادة والصيام جلادة والحج زهادة والجهاد حجة ، ومن لم تقم له الحجة فإيمانه ناقص .

(بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أى : أنهم جاهدوا أنفسهم حتى بلغوا الجهد فقهروها على أن يقدموها مع أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، فالمجاهد خارج من بيته ليفوز بالشهادة أو يكرمه الله بالنصر ، وهو على يقين من الفوز بإحدى الحسنين . إما الفوز بالشهادة وهى الغاية العظمى أو بالنصر والغنيمة وهما الخير الكثير فى الدنيا وفى الآخرة إن راعى فى ذلك جانب الله تعالى .

(وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا)

وهذه الآية الشريفة خاصة بالمهاجرين ، والهجرة الأولى الحبشة والثانية إلى المدينة ، ومن الصحابة من فاز بالهجرتين فمنهم من هاجر إلى الحبشة وهاجر من الحبشة إلى المدينة ، وهناك هجرة أخرى وهى هجرة الحديبية فإن بعض المستضعفين من الذين فى مكة لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالجيش فى العمرة فى رمضان ومنعه أهل مكة من العمرة وحصل الصلح على أن يدخل مكة بدون سلاح معتمرا ويمكث فيها ثلاثة أيام ، انتهز الفرصة هؤلاء المستضعفين وهاجروا إلى المدينة خشية من قريش وهى هجرة الصفا ، ولما ذكر بالثناء الحسن من آمنوا وهاجروا فى غزوة بدر من المهاجرين عطف عليهم الأنصار ، وما أنعم الله به عليهم فى قوله سبحانه : (وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الذين آووا رسول الله والمهاجرين معه وأسكنوهم فى دورهم وأطعموهم من قوتهم وشاركوهم فى أموالهم (وَنَصَرُوا) أى : نصروا الله ورسوله بأموالهم وأنفسهم وقاتلوا عدو الله وعدوهم ونصرهم الله تعالى ببدر لأنهم نصروه سبحانه ، قال تعالى : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ، (أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الإشارة عائدة إلى المهاجرين والأنصار الذين ذكرهم فى الآية ، وأولى ببعض يعنى : أن بعضهم أولى بالبعض الآخر فى الميراث وفى العقل وفى غيرهما .

الأنصارى يرث المهاجرى :

وهذه الآية تدل على أن المهاجر إذا مات فإن الأنصاري يرثه ، وليس لوالديه وإخوته وأولاده الكفار حق فى الميراث .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

أثبتت هذه الآية أن القرابة والإخاء محصوران فى الأبوة والبنوة الروحية ، لأن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) أولى بنا من أنفسنا ، ومن كان أولى بى من نفسى فهو بالأولى أولى بى من غيرى من أب وأم وأخ ، ويكون أبنائى وإخوتى هم المؤمنون الذين هم فى ولاية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال (صلى الله عليه وسلم) : (أدخل الإسلام بلالا فى نسبى ، وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى) . وقال (صلى الله عليه وسلم) : (سلمان منا أهل البيت) فرفعه إلى أن جعله متصلا برسول الله نسبا بسبب إيمانه .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) . هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن الذين آمنوا ببكة واستضعفوا بها وأظهروا الكفر أمام الشركين لحفظ أعراضهم وأموالهم فحكم الله تعالى بحرمانهم من ميراث أقاربهم المهاجرين ومن ولايتهم فى شؤونهم الخاصة والعامة حتى يهاجروا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام مادام على الأرض بلد إسلامى يحمى أهلها فليس لهم حق فى الميراث ولا فى الولاية حتى يهاجروا .

قوله تعالى : (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) أى إن من لم يهاجروا إذا حصل عليهم اعتداء بسبب تمسكهم بالدين وإظهاره ، وطلبوا منكم النصرة فالواجب عليكم إغاثتهم بشروط ، منها أن يكونوا استنصروكم فى الدين، ومنها أن يكونوا مع قوم ليس بينكم وبينهم ميثاق لأن الوفاء بالعهد من شيم المسلمين، وهذا لا يمنع من أن إمام المسلمين يتوسط بينهم وبين القوم بالحكمة إغاثة لهم لا بالحرب والتهديد لقوله لتعالى : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : والله بصير بقلوبكم وجوارحكم (بَصِيرٌ) علما ورؤية لا يخفى عليه شئ فهو بصير بالنوايا فى القلوب وبصير بحركات وسكنات الجوارح ، فالقلب يعمل والجوارح تعمل ، وهذه الآية يقظة لقلوب بالمؤمنين أن يتحروا فى أعمالهم القلبية والجسمية رعاية الله تعالى عملا بأحكامه واقتداء برسوله (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73)) .

هذه الآية تقابل الآية السابقة من أن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض ، فكذلك الكافرين يكونوا أولياء بعضهم، ومخالفة هذه الأحكام الصريحة فى القرآن تنتج ما توعد الله به مخالفته وهو قوله تعالى : (إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) إلا أداة التوكيد (إن) هنا مضغمة فى (إلا) إن أنتم لا تفعلوه أى : تنفذوا أحكام الله تكن فتنة فى الأرض ، أى : تفتحون أبواب الفتن العمياء الصماء عليكم فى الأرض بسبب موالاتكم للكافرين . وقال (صلى الله عليه وسلم) : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، فقال أحد الصحابة أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما يا رسول الله . قال (صلى

الله عليه وسلم) : (تمنعه عن الظلم فذلك نصره) فالواجب علينا نصرة المسلم ظالما أو مظلوما وما والى مسلم كافرا إلا أقام الحجة على نفسه أنه مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

والفتنة هنا : ظهور أهل الباطل على أهل الحق ، وفى ذلك ما فيه من غضب الله على من والى أهل الكفر حتى جعلهم يضلون أهل الحق وظهور الكافرين على المسلمين فتنة فى الأرض (وفساد كبير) والفساد الكبير هو الظلم والتظالم .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)) .

تقدم بيان هذه الآية (مفردات) فى الآية التى سبقت ، ولما كانت الآية السابقة أنزلت لبيان ما للمهاجرين والأنصار من ولاية بعضهم لبعض، وهذه الآية الصريحة أنزلها الله تعالى لبيان من صدق الله ورسوله وهاجر وجاهد فى سبيل الله بالمال والنفس من المهاجرين والأنصار وأمثالهم لأن باب الهجرة بمعناها لا يزال مفتوحا إلى يوم القيامة ـ كقول الحسن رضى الله عنه ـ وبذلك لا تكون الآية مكررة، ووجه آخر يقتضى عدم تكرارها وهو أن الآية المتأخرة بين الله لنا فيها ما أعد لهم من جزاء بتلك الصفات التى هى الإيمان بالله وبالهجرة وبالجهاد فى سبيله بالمال والنفس .

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

اسم الإشارة عائد إلى من أثنى الله عليهم بالإيمان والهجرة والجهاد وقوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) حصر وحكم من الله بأنهم المؤمنون الكاملون فى إيمانهم وقوله : (حَقًّا) تأييدا لهم فى إيمانهم، وتكون المعنى : هم المؤمنون الكاملون فى الحقيقة ونفس الأمر . (لهم مغفرة وذنوب ورزق كريم) أى : جزاء أولئك المجملين بتلك الصفات مغفرة لذنوبهم (والمغفرة) هى الستر أى : يستر الله تعالى ذنوبهم عن أنفسهم وعن الملائكة وعن الجن والإنس حتى لا يكون عليهم شاهد بذنب يوم القيامة، (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أى : طعام شهى لذيذ من نعيم الجنة ومعنى (كَرِيمٌ) أن الإنسان يأكله فلا يكون منه رجيع بل يصعد على أجسامنا كاللؤلؤ الأبيض أطيب من ريح المسك ؛ لأن الجنة لا نوم فيها ولا يتغوط فيها الإنسان ولا يبول ، لأن النوم موت قصير والبول والغائط ذلان حفظ الله بهما الإنسان من نسيان نفسه المؤدى إلى عذاب الله يوم القيامة ، لأن العاقل حين يتغوط ويبول لا ينسى حقيقة يوم القيامة، ولما كانت الجنة كل ما فيها من النعيم يذكر العبد بربه ، لأن أهل الجنة يرون آثار قدرة الله جلية وفضله العظيم متواليا وأهلها يتحققون بكمال العبودية فى مشاهد لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)) .

بين الله تعالى أنواع الناس بالنسبة للإسلام فمنهم كافر ومنهم منافق، ومنهم مؤمن هاجر وجاهد بالمال والنفس ، ومنهم مؤمن لم يهاجر ولم يجاهد ثم هاجر وجاهد فالحقه الله بمن سبقه ، ومنهم كافر آمن وهاجر وجاهد فى عصره (صلى الله عليه وسلم) فكان منهم أيضا وذلك فضل من الله تعالى وإحسان ولطف.

وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الذين آمنوا من بعد ذكرهم الله بالهجرة والجهاد بعد إيمانهم ، هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألحقهم الله بالسابقين الأولين بدليل قوله تعالى : (فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) أى : من أهل السابقية ولم يقل سبحانه : معكم، وفى قوله : (مِنْكُمْ) كمال الإحسان من الله تعالى ؛ لأنه سبحانه ذو الفضل العظيم .

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)

هذه الآية الشريفة نسخت الآية التى قبلها من أن المهاجرين والأنصار أولياء بعض ، لأن الآية كانت تحرم الأقارب من ميراث المؤمنين فكان يرثه أخوه المؤمن من الأنصار ، فلما فتحت مكة وعم الإسلام وانتشر فى جزيرة العرب حكم أن أولى الأرحام بعضهم أولياء بعض، وقوله (فِي كِتَابِ اللَّهِ) أى : فيما أنزله الله تعالى من أحكام الميراث فى سورة النساء، وإن كان أبو حنيفة غفر الله له ، كان يرى استحقاق ذوى الرحم فى الميراث ويقول (هذا فى كتاب الله) والحقيقة : أن المراد بقوله تعالى فى كتاب الله ، أى سورة النساء (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أى : بكل شئ خلقه عليم . لا يخفى عليه شئ .

* * * * *

سـورة التوبـــة

قوله تعالى : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1)) .

حكمة عدم افتتاح السورة بالبسملة :

لم تكتب البسملة فى أول السورة لحكم كثيرة : منها : أن هذه السورة نزلت فى آخر القرآن ولم يعين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) موضعها، وكان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه فى وضع كل سورة بموضعها وفصلها عن التى قبلها بالبسملة، وانتقل (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى ولم يعين موضعها، ولما اجتمع الصحابة اتفقوا على أن تكون بعد الأنفال ، وأن تكون متصلة بها بدون فاصل لأن سورة براءة أشبه بسورة الأنفال .

وهناك حكمة أخرى وهى أن الأنفال فيها العهود وقبول التوبة وبيان ما يلزم للمهاجرين والأنصار وما يجب أن يكون عليه المسلمون بالنسبة للكافرين ، وفى هذه نبذ العهود وكشف سرائر الكفار والمنافقين وفضيحتهم وتوعدهم بالعذاب والنقمة ، فناسب أن لا تفتح بالرحمة ؛ لأن البسملة رحمة ، والبراءة لغة : هى سلب العصمة والقطيعة والصد والبعد .

ومعنى هذه الآية الشريفة – هذا براءة من الله ورسوله – فتكون خبرا لمبتدأ محذوف، وجائز أن تكون مبتدأ وخبرها للذين عاهدتم من المشركين وهى معرفة ، لأنها براءة من الله ورسوله .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما أن توجه لغزوة تبوك أرجف المنافقون ، وقالوا : إن محمدا لا يقوى على قتال ضعفاء العرب فكيف يقوى على قتال الروم فى الشام ؟ وظنوا السوء بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يرجع ونقض المشركون عهودهم معتقدين أن محمدا سيقتله الروم ، ولهذا رجع عبد الله بن أبى ابن سلول بأكثر من نصف الجيش قائلا : ما أخبرنا به الله عنه : (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) معتقدا عدم رجوع الجيش من أرض الشام ، فلما أرجع الله حبيبه (صلى الله عليه وسلم) ظافرا منصورا إلى المدينة أمره جل جلاله بأن يعلن ذلك بقوله تعالى :

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى تبرأ أنت وأصحابك من العهود التى عاهدتم بها المشركين ، وفى قوله (عَاهَدْتُمْ) مع ان الصحابة لم يعاهدوا المشركين وان الذى عاهدهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولما كان الصحابة رضوان الله عليهم هم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بكلهم كان عهده عهدهم.

قوله تعالى : (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)) .

حكمة تعين الحكم باربعة أشهر :

أى : فامشوا أيها المشركون فى الأرض أربعة أشهر شرقا وغربا آمنين من القتل والسلب حتى تمضى الأربعة أشهر، وبعد ذلك فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، أى : يكونوا بين أمرين واقعين إما القتل ، وإما التوبة والإسلام ، وتعين الشهور وتعين الحكم بأربعة أشهر لحكمة ، قال بعضهم : هى الأشهر الحرم أشهر الحج وشهر المحرم [شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم] ، وقال بعضهم : هى من يوم عيد الأضحى إلى اليوم العاشر من ربيع الثانى ؛ وذلك لأن العهود كان أكثرها أربعة أشهر فأمنهم الله مدة العهود حتى تنتهى ، ومن لم يكن له عهد فمدته خمسون يوما من يوم عيد الأضحى إلى آخر المحرم ويبتدئ الحرب من أول يوم من صفر .

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ)

هذه الآية تهديد وإنذار للمشركين وفى طيه إرهاب وتخويف لهم ، ومعنى الآية : تحققوا أو اعلموا علم يقين أنكم مع كثرتكم عددا وعدة لن تعجزوا الله تعالى ؛ فإن الذى أهلك فرعون وثمود وقوم هود ولوط وقوم شعيب وقوم صالح بالمسخ والخسف والغرق والرعدة قادر يمسخكم قردة وخنازير وأن يخسف بكم الأرض وأن يستأصلكم سبحانه بسيوف المسلمين (وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) أى : واعلموا أيضا أن الله مخزى الكافرين بالعزل والهوان والقتل والسبى وغير ذلك مما أخذ به من كذبوا الرسل .

قوله تعالى : (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3)) .

بمعنى أن الله تعالى يأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يعلن براءة الله تعالى وبراءة رسوله (صلى الله عليه وسلم) من عهود المشركين ، ومن جميع المشركين الذين لم يعاهدوه ، وبذلك يكونون جميعا لا عهد لهم عند الله ورسوله ويجب قتلهم وأسرهم فى أى مكان وفى أى زمان ، ولرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينيب عنه من يعلن براءة الله منهم يوم الحج الأكبر، يعنى : يوم عيد الأضحى وهم فوق جبل عرفات ، وكان أبو بكر نائبا عنه (صلى الله عليه وسلم) حيث كان أميرا على الحج فى هذا العام فأرسل (صلى الله عليه وسلم) عليا فلحق أبا بكر وأعلن تلك البراءة ؛ لأنه (صلى الله عليه وسلم) قال : " إنما يعلن عنى من كان منى " ، (والآذان) هو الإعلان، وفى قوله تعالى : (إِلَى النَّاسِ) أى : إلى المشركين جميعا من عاهد ومن لم يعاهد ، وقد دخل فى يوم إعلان تلك البراءة من كانوا على عهد من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اليهود والنصارى بدليل قوله تعالى : (إِلَى النَّاسِ) .

(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)

أى : أن الله سلبهم العصمة والأمان على أموالهم وأولادهم وديارهم وأنفسهم ، وبراءة الله تعالى منهم هى براءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون معه (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (والتوبة) الرجوع إلى الحق ، أى : فإن

أسلمتم تائبين من الكفر فهو خير لكم ؛ لأن الله تعالى يقبل منكم الرجوع إليه ويكون لكم ما للمؤمنين وعليكم ما عليهم ، يؤيد هذا التأويل قوله سبحانه وتعالى (وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) وعد به أهل الشرك إذا هم تابوا فانهم بتوبتهم يكونوا من المؤمنين السابقين وذلك فضل الله تعالى ، وإن كان فضل الذين آمنوا قبل براءة الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) أكمل وأعظم عند الله تعالى ولكن الله تعالى وعدهم الخير والله يرفع من يشاء قال تعالى : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)[1] .

(وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية تهديد من الله تعالى ووعيد وإنذار وتأويلها : أن الله يتوعدهم بالعذاب الأليم إذا هم تولوا أى : أبوا قبول التوبة وأصروا على الكفر، وقوله تعالى: (فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ) أى : فتحققوا أن غروركم وعددكم وإصراركم على الكفر متعمدين على ما تعلمونه فى أنفسكم من القوة والمنعة لا يعجز الله تعالى عن الانتقام منكم وعن أخذكم أخذ عزيز مقتدر كما أخذ من كذب قبلكم من الأمم البائدة التى سلط الله عليهم ريح صرصر عاتية فأهلكتهم ، وربما لو سلطها الله على كفار قريش لاقتلعت أرضهم وجبالهم وجعلت الكفار كجذوع النخل الخاوية.

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

هذه الآية الشريفة : تقريع وتشنيع وتهديد لمن أبوا التوبة ؛ لأن البشرى : خبر بخير لم يسمعه المخاطب من قبل فجعله الله خبرا بعذاب أليم ، وإذا كانت البشرى لهم تكون بعذاب أليم فكيف يكون التخويف والتهديد؟ لابد أن يكون من الله تعالى فى صورة لعنة تعمهم وغضب من الله عليهم ، والغضب أعاذنا الله منه أشد وأنكى من العذاب الأليم ز حفظنا الله تعالى من موجبات غضبه ، وأقامنا سبحانه فى محابه ومراضيه ، ووفقنا للتوبة النصوح إنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)) .

الاستثناء هنا من قوله تعالى : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ) وجائز أن يكون من قوله تعالى : (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ) وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى ورسوله تبرأ من المشركين ممن عاهدوا رسول الله وغدروا بعهده وممن لم يعاهدوه ، وقد تقدم فى سورة الأنفال حكم من غدر بالفعل وحكم من ظهرت منه علامات الغدر ، وفى هذه الآية الشريفة يبين الله لنا أن من عاهد ووفى بعهده فإنه خارج عن تلك الأحكام المتقدمة ؛ لأن الله تعالى : أوجب علينا أن نفى بعهدهم إلى مدتهم بشروط بينها سبحانه وتعالى فى هذه الآية بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا) أى لم يخرجوا عليكم محاربين ولا مغتصبين مالا ولا نفسا ولا أرضا (وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا) أى لم يعينوا عليكم عدوا محاربا (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) أى انهم إذا لم ينقصونا شيئا ولم يعينوا علينا عدوا فوجب الوفاء بعهدهم إلى تمام مدته وهذا أمر من الله تعالى يقتضى الوجوب ، لأن الوفاء بالعهد من أوثق عرى الإيمان ، والعدل نظام

الملك وهو ميزان الله تعالى فى الأرض ، وبهذا الميزان يحاسب فيعفوا ويعاقب .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

الذين يخافون من الله فلا يخالفون له أمرا ولا نهيا ، وقد تقدم الكلام على حب الله لعبيده ، وتقرر أن الحب من الله إرادة الخير الأخروى لهم من التوفيق والهداية والعلم والعمل والمراقبة والخشية ، ومحبة الله تعالى للعبد خير له من جنة الفردوس ، كما أن حب المؤمن لأخيه فى الله وردت الأحاديث الشريفة بأن الله تعالى يهب له بهذا الحب أرقى مشاهدات العناية والقرب ، فكيف إذا أحب الله العبد ، والحب من الله تعالى لا بسبب علم ولا عمل ولا نسب ولا حال ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء قال تعالى : (لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[1] وقوله صدق قديم قبل اللون والكون والزمان ، وقبل العلم

---

(1) المجادلة : 11 .
(1) يونس : 2 .

والعمل والحال ، وإنما هو فضل وإحسان من الله تعالى ونتيجة من نتائج محبة الله للعبد . نسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بحبه لنا .

محبة الله ومحبة بعضنا :

وليست محبة الله لنا ومحبتنا له كمحبة بعضنا لبعض لأن محبة بعضنا لبعض لها أسباب قائمة وعلل معلومة كالوالدية والزوجية والقرابة والنفع والمشاكلة ، أما محبة الله لنا فليس لها سبب ولا علم ولا عمل منا بل هى محض تفضل منه وإحسان، ومحبتنا له سبحانه ليس لها سبب فى الكون ؛ لأن الأسباب علل وأغراض ، ولكنا إذا أحببناه فإن ذلك من سابق محبته وإحسانه ومواجهته لنا بوجهه الجميل، وكيف لا ؟ وقد قال الله تعالى : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) [2] وكفى بالمتقى شرفا أن الله يحبه ، ومن وفقهم الله تعالى فجعلهم من المتقين يجب عليهم أن يديموا شكر الله وأن يتجملوا بما يديم لهم المزيد من فضل الله تعالى بأن يديموا شهود الفاعل المختار الذى خلقنا وأمدنا بكل شئ فى الكون وعمر قلوبنا بمحبته وبالشوق إليه وأقامنا فى محابه ومراضيه جل جلاله .

وسبب نزول هذه الآية الشريفة : أن حيا كنانة كان لهم من عهدهم تسعة أشهر فأتمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنهم وفوا بعهدهم لرسول الله ولم ينقصوه شيئا ولم يظاهروا عليه عدوا .

قوله تعالى : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)) .

هذا حكم الله تعالى الذى حكم به على من نقض العهد من المشركين أو ظاهر على نقضه (الأشهر) جمع شهر ، والشهر : مأخوذ من الشهرة وهو زمن شروق الهلال إلى ان تنصرم أيامه ويتعدى فلا يظهر فى الشرق ولا فى الغرب ، والشهر تسع وعشرون يوما أو ثلاثون يوما ، والأشهر الحرم يراد بها أشهر الحج وهى [شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم] الذى هو شهر حرام ، لأن أشهر الحج عند مالك هى : شوال والقعدة والحجة ، وعند غيره : شوال والقعدة وعشرة أيام من الحجة ، و(انْسَلَخَ) أى : تصرم زمانه وحل محله شهور أخر ، وسلخ الأشهر مأخوذ من سلخ جلد الشاة أى بعد عنها ، أي إذا انتهى زمن الأشهر الحرم انتهى بذلك عهد من كان بقى لهم أربعة أشهر ، فوجب قتالهم وقتال كل مشرك لم يكن له عهد إلا من استثناهم الله تعالى من الذين عاهدوا ولم ينقضوا ولم يظاهروا علينا فإن الله أمرنا بالوفاء لهم إلى تمام مدة عهدهم ، ولما أذن على عليه السلام ببراءة الله فى الناس يوم الحج الأكبر ، قام رجل فقال : يا على ، إذا مضت الأشهر الحرم وأردنا أن نتوجه إلى محمد لنسمع كلام الله أنكون فى مأمن أم نقتل ؟ فقال : (لا ؛ لأن الله تعالى يقول : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ).

(فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

هذه الآية أمر من الله تعالى لنا بما أوجبه علينا بعد مضى الأشهر الحرم ، أمرنا جل جلاله بقتل المشركين عند التمكين من قتلهم وبأخذهم إن لم نتمكن من قتلهم ، (والأخذ) هو : الأسر يقال : الأسير هو الأخيذ ، وأمرنا بحصرهم ، وحصرهم : هو منعهم من الخروج إلى بلد آخر فيحبسوا فى بلدهم حتى نتمكن منهم فنقتلهم أو نأسرهم (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) أى اقعدوا لهم فى كل طريق ومنفذ مراقبة لهم حتى لا يفلتوا من أيديكم (ورصد الشئ) هو مراقبته ، وبهذا حكم الله تعالى عليهم بأمور أربعة وهى :

1- القتل .
2- والأخذ وهو الأسر .
3- والحصر بأن نحصرهم فى بلادهم .

---

(2) الأنفال : 63 .

4- وأن نرصدهم فى الطرقات والمنافذ حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فيخزيهم أو يهديهم ويغفر لهم .

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)

هذه الآية الشريفة حجة لنا على المشركين أننا لا نخلى سبيلهم إلا بشروط بينها الله بقوله : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) بشرط التوبة وهى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقد تكلمنا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيما تقدم ، وبقى علينا أن نفهم أن هل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المراد بهما اعتقاد وجوبهما ؛ فتارك الصلاة لا يقتل ولكنه يعذر ، وإن كان المراد الاعتقاد والعمل ؛ فتارك الصلاة يؤمر بالصلاة حتى يفوت الوقت الاختيارى والضرورى - صلاة العصر - ثم يقتل كفرا أو حدا إن لم يفعل ، ودليل ذلك : أن التوبة عمل قلبى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عمل جسمانى، ولا تكمل النفس إلا بالتوبة ولا يكمل الجسم إلا بالعمل فمن ترك عمل القلوب وعمل بالجوارح فهو منافق ، ومن ترك عمل الجوارح وعمل بالقلوب – ونحن مكلفون بالأخذ بالظاهر – فهو عندنا كافر ويقتل حدا ، وقد أمر أبو بكر رضى الله عنه بقتال من منعوا الزكاة وسئل فى ذلك فقال : (لو منعونى عقال بعير كانوا يؤتونه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقاتلتهم حتى آخذه) ، وقال بقتالهم الشافعى رحمه الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى قال : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) وقد جمع التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عقد واحد حتى نخلى سبيلهم، والصلاة والزكاة أعمال بدنية قلبية معا ، والإيمان عمل قلبى فقط ، (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يغفر لهم سبحانه ما فرط منهم قبل الإيمان فيطهرهم من الذنوب بالإيمان ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله (ورحيم) أى : يرحمهم فيعينهم على القيام بأركان الإسلام ونوافل البر .

قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ((6)) .

(وَإِنْ) هنا شرطية و (أَحَدٌ) فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده ؛ لأن أدوات الشرط لا يليها إلا الأفعال ، ويكون النص : (وإن استجارك أحد من المشركين فأجره) والمعنى إن مضت الأشهر الحرم وسارعتم إلى قتل المشركين كافة إلا من كانوا على عهد منكم واستجاركم رجل مشرك يطلب سماع كلام الله تعالى وبيان رسول اله (صلى الله عليه وسلم) فأجره حتى يسمع كلام الله وكلام رسوله ، فإن قبل وآمن فهو منكم وإن أبى أن يؤمن فاحفظوه وأرجعوه إلى بلده آمنا وفاء لذمته وقبول جواره ، فإذا بلغ مأمنه فاقتلوه فى بلده .

لا ينشرح الصدر للإسلام إلا إذا صحب أهل العلم بالله :

وهذه الآية دليل على أن المسلم يجب عليه أن يبحث وينظر ويستدل حتى يقبل الإيمان بقلبه وجسمه قبولا يجعله مطمئن القلب منشرح الصدر مقبلا على ذكر الله وطاعته ولا يكون ذلك إلا بصحبة أهل العلم بالله فإن علومهم إذا باشرت القلوب وسعتها واطمأنت بها وانشرح الصدر فسارعت الجوارح إلى ذكر الله والعمل بما يحبه ويرضاه وتزداد القلوب طمأنينة فى كل نفس ؛ لأن العلم بالله تزكية النفوس تجعلها تشم طيب ملكوت الله الأعلى فترى أصحاب العارفين بالله مقبلين على الله بالكلية فانين عمن سواه ومما سواه قائمين بما يقربهم إليه جل وعلا ، وذلك لما يرونه من المزيد من العلم والحكمة والمعرفة فى كل يوم .

عمل المقلد وعمل من صحب أهل العلم :

أما المقلد لغيره فى طريق الله الذى يصحب من يأمره بالأعمال البدنية الكثيرة فإنه كلما عمل لعب الشيطان فأغراه فأفسد عليه عقيدته وشط به من حيث لا يعلم ، وأما أصحاب أهل العلم بالله لو أقاموا الليل طاعة والنهار عبادة فإن الله يحفظ قلوبهم بالعلم ويجملهم بالأدب لحضرته العلية فلا يرون أنفسهم إلا مسيرين ومضطرين . قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)[1] رغم أنهم هم الذين باتوا لربهم سجدا وقياما ؛ وذلك لأن للعلم نور من الله وأسرار ، فعلى السالك فى سبيل الله أن يطلب العلم ولو بالصين ، لأنه أول فرض أوجبه الله على

(1) الفرقان : 65 .

المسلمين وجوب عين قبل الصلاة والصيام . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

الإشارة عائدة إلى من ذكرهم الله من المشركين والى من طلب الأمان والجوار حتى يسمع كلام الله تعالى ثم سمعه فلم يؤمن، فنفى عنهم سبحانه العلم لأنه ختم على قلوبهم ، لو نفاه عنهم لأن زعمائهم الذين يقتدون بهم يحرصون على حطام الدنيا من الرياسة ونفوذ الكلمة وجمع الأموال ولحرصهم عليها صدوا أتباعهم عن دين الله تعالى .

قوله تعالى : (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7)) .

العجب من الله تعالى ان يكون للمشركين الذين عاهدوا الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ثم خانوا ، وكذلك المشركين الذين لم يكن بينهم وبين رسول الله عهد كيف يكون لهم عهد عند الله ورسوله وعند المؤمنين بعد خيانتهم الله ورسوله بنصرة بني بكر على بنى خزاعة ، وهم حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحلفاء أبيه من قبله . (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) فأوفوا لهم عهدهم (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ) أى : أقاموا على الوفاء بالعهد فلم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم عدوا (فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) أى : حافظوا على الوفاء لهم بعهدهم مستقيمين لهم على ذلك (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) الذين يراقبون جلاله سبحانه ويتقون مخالفة عهدهم ووعدهم وقد تقدم الكلام على محبة الله للعبد والكلام على التقوى أيضا .

قوله تعالى : (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8)) .

تأويل هذه الآية : الاستفهام إنكارى والمعنى : عجبا لكم أيها المؤمنون كيف تقبلون من هؤلاء المشركين عهدا وهم فى الحقيقة أعداء الله وأعداء رسوله وأعداؤكم ؟ ! ودليل ذلك أنهم (وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) أى : إن يتمكنوا منكم (لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) أى : لا يخافون فيكم إلا (وإل) اسم من أسماء الله تعالى فيقال : (إل وإيل) وذلك لأن معنى جبرائيل وجبريل أى عبد إل أو إيل، وجائز أن يكون معنى (إل) القرابة والصداقة (والذمة) أى العهد .

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

أى : يظهرون لكم ما تحبون من الأقوال فقط كيدا وخداعا لكم (وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ) أى وتأبى قلوبهم إلا العزم على مغرتكم وإساءتكم وبذلك جمعوا بين شرين ، شر الكفر وشر بغض المؤمنين، (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) معلوم أن الكفر ليس بعده ذنب ، لأن الكفر شر الكبائر وما دونه ليس له قيمة بالنسبة للكفر ، قال الحكيم : (ليس بعد الكفر ذنب أو ذم) أى : إن الكفر شر الذنوب وأقبح المذام ، ولهذا وصف الله الأكثرية منهم بالفسق لا بالكفر، فشنع عليهم بالفسق بعد كفرهم ، إن من المشركين من هم على فضيلة أخلاقية ، كما اشتهر عن بعض العرب قبل الإسلام من الكرم وحماية الجار والعفاف والنجدة، أما المشركون الذين قبحت أخلاقهم وصفاتهم فإنهم هم الفاسقون الذين كفروا بالله تعالى . نسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين من شر الفسق والنفاق المؤدى إلى أسفل دركات النار.

قوله تعالى : (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9)) .

فيمن نزلت هذه الآية :

هذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين يعلمون صفات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى التوراة ومولده وهجرته وكانوا قبل بعثته (صلى الله عليه وسلم) يستظهرون على العرب فيقولون : سيظهر نبى نقاتلكم معه ، فلما أن بعثه الله

تعالى حسدوه (صلى الله عليه وسلم) وأنكروا صفاته فى التوراة ، كما فعل بعضهم لما أن حضروا أمامه وشهدوا له بالنبوة ، فلما خرجوا إلى كعب بن الأشرف وكان عدوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كره ما قاله الأحبار وكان يعطيهم كل سنة وسقا من التمر ، فلما طلبوا منه عطاياهم خاصمهم ومنعها عنهم، فلما علموا أن ذلك بسبب قولهم أنكروا ما قالوه وقالوا : إن نبي آخر الزمان من ولد داود وأنكروا آيات الله فى التوراة فباعوها بوسق من التمر ، وهذا معنى قوله تعالى : (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) أى : باعوا آيات الله بوسق من التمر وهو الثمن القليل (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) أى : فمنعوا الناس المقتدين بهم عن سبيل الله تعالى (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى : إنهم قبح عملهم الذى كانوا يعملون من بيع آيات الله فى التوراة بثمن قليل فكفروا بتكذيبهم الله تعالى وضلوا بصد الناس عن الإسلام.

قوله تعالى: (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10)) .

(رقب الشئ) أى : انتظره ورصده وحرسه، وهنا لا يرقبون أى : لا يخافون فى مؤمن الها ولا عهدا (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) اسم الإشارة عائد إلى من ذكر الله صفاتهم الذميمة فى هذه الآية و(هُمُ الْمُعْتَدُونَ) المتجاوزون حدود الله تعالى ، والاعتداء شر من الفسق ؛ لأن الاعتداء فسوق مقرون بعدوان وظلم وتربص بالسوء .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)) .

حكمة ذكر الصلاة والزكاة :

التوبة هنا : هى الرجوع من الكفر إلى الإسلام ، ولما كانت من أعمال القلوب وهى كمال الحكمة النظرية ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كمال الحكمة العملية ، وذكر الصلاة سبحانه لأنها العبادة المكررة فى اليوم خمس مرات ، وهى الدليل على كمال العبودية لله والتصديق بآياته ، والزكاة من الحكمة العملية وهى البرهان القاطع على كمال الإيمان ، لأن المال لا ينفقه فى سبيل الله إلا الموقن بثواب الله تعالى ، ولذلك فقد جمع الله التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عقد واحد وقد تقدم الكلام عليها فيما سبق من الآيات ، وقد أمر أبو بكر رضى الله عنه بقتال من منعوا الزكاة ، فقال له عمر ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحق من حقوق الله تعالى) فقال أبو بكر رضى الله عنه : (وهذا حق من حقوق الله تعالى والله لو منعونى عناقا أو عقال بعير لقاتلتهم عليه حتى يؤدونه ولا أفرق بين ما جمع الله تعالى) قال عمر : (فعلمت أن الله قد شرح صدر أبى بكر لقتالهم) وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن إقامتها أن يكون المصلى يذكر الله فيها الذكر الأكبر وهو قراءة القرآن مع رعاية أن يسمعه المتكلم جل جلاله ، وهذا هو الذكر الأكبر الذي ينال به المؤمن رضوان الله الأكبر ، والرضوان فوق روضات الجنات قال الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [1] فرفع الله الرضوان الأكبر على المساكن الطيبة فى جنات عدن ، وهذا الرضوان الأكبر هو جزاء أهل الذكر قال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) . وذكر الله أن يذكر المصلى الله تعالى في الصلاة بالشهود ، وقال بعض العارفين : الذكر الأكبر أن يذكر العبد الله تعالى فيذكره الله تعالى بدليل قوله تعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) فيكون ذكر الله تعالى عبده هو ذكر الله الأكبر .

قوله تعالى : (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)) .

سبب هذه الآية الشريفة خاص ولكن حكمها عام ونحن أولى بالعمل بحكمها وكان الله أنزلها فى هذا الوقت لأننا بين أعداء نكثوا عهودنا وطعنوا فى ديننا وآذونا فى نبينا (صلى الله عليه وسلم) من مردة أوربا ومن شياطين الإنس فى

---

(1) التوبة : 72 .

مصر وفى غيرها من سائر البلاد الإسلامية ، وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى يقول : وإن نكثوا أيمانهم (النكث) هو : الرجوع إلى الوراء ، ومعناه هنا : نقض العهد والخيانة والغدر ، وهذا هو حكم الله تعالى على كل من ارتكب هذا الاثم إلى يوم القيامة (وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) . (الطعن) فى اللغة هو : الوخذ بحربة من حديد أو برمح بقصد إهلاك من يطعن ، ومعنى الطعن هنا : ذكر الدين بما ينقصه فى أعين معتنقة كما يفعل دعاة النصرانية الآن ، ولكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة .

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ)

هذه الآية حكم صريح فى معناها لا تقبل التأويل فيه وهى ناسخة لما قبلها من الآيات فى الأنفال وغيرها (أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) هم : أبو جهل وأبو سفيان وأمية بن خلف وعقبة بن ربيعة ، ومن أئمة الكفر أحبار اليهود ، والحكم بقتال أئمة الكفر حكم بقتال أتباعهم ، وإنما قدم الأئمة لأنهم قادتهم ومن الأئمة أحبار اليهود وهم شر الأئمة من أولهم إلى آخرهم ، وكم شنع الله عليهم وهددهم فى القرآن بأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق وأنهم فى قوله تعالى (إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ) أى : إن أئمة الكفر مع توثيق العهود بالأيمان المغلظة يخدعون ويخونون وأكد الآية بأداة التوكيد لتقوية الخبر ليقظة قلوب المؤمنين ، فنفى الله عن الكافرين الصدق فى القول والإخلاص فى العمل حتى نأخذ حذرنا منهم وخصوصا فيما يتعلق بأمور ديننا .

الحب فى الله والبغض فى الله :

والواجب علينا جماعة المسلمين أن نظهر العداوة الشديدة والبغض لكل طاعن فى الدين لأن ذلك من أوثق عرى الإيمان ، ومن لا يحب في الله ويبغض في الله فليس بمؤمن كامل ، فإن دين الله لم يقم إلا على قائمة الحب فى الله والبغض فى الله ، ومن قرأ ثناء الله العاطر على الأنصار فى قوله تعالى : (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) يتحقق أن الحب فى الله والبذل فى الله والزيارة فى الله والمجالسة فى الله هى الإيمان وبها علو الكلمة وإعلاؤها وتجديد السنة وسعادة المجتمع الاسلامى فى الدنيا والآخرة .

(لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) (لعل) هنا بمعنى (اللام) لأن لعل للترجى ، ولا يليق بعلام الغيوب أن يتوقع أمرا من الأمور أو يترجاه ، والمعنى أى : اقتلوا أئمة الكفر لينتهوا إما بالتوبة وهى الإيمان بالله تعالى وبرسوله وإما باستئصالهم جميعا بقدر الطاقة ، ولما كان الخطاب موجها إلى المشركين كان هذا الحكم مطابقا عدلا لجزائهم ، أما الجزية والاسترقاق والأسر فليس له نصيب هنا بعد أن وقعوا فيما وقعوا فيه من الخيانة والغدر ونكث الميثاق وكم عاهدوا ونكثوا .

قوله تعالى : (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13)) .

(ألا) هنا لحض المؤمنين (الهمزة) للاستفهام (لا) لنفى القول فى المستقبل ، فإذا دخلت عليها (الألف) كانت لتقرير الفعل فى المستقبل ، والمعنى : أن الله تعالى يحض نبيه وأصحابه على قتال قريش لفتح مكة مبينا له (صلى الله عليه وسلم) حكمة هذا الحض بقوله : (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ) وهو السبب الأول الموجب لقتالهم شرعا وعقلا (ونكث الإيمان) وهو نقض العهود والمواثيق (وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ) هذا هو السبب الثانى ومعناه أن قريشا هموا بإخراج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعملوا على ذلك وخدعوا وكادوا ومكروا وتشاوروا حتى جلسوا فى دار الندوة - مجلس الشورى – وقد تقدم تفصيل فيما سبق ، وجائز أن يكون ذلك الخروج من المدينة فإنهم هموا فى غزوة بدر بالقضاء على المسلمين وكذلك فى غزوة الخندق وكل ذلك كان بمعاونة اليهود قاتلهم الله .

(وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(الواو) هنا للحال ، وبدؤوكم السبب الثالث ، والضمير هنا كناية عن قريش و (بدؤوكم أول مرة) بغزوة بدر فان العير كان وصل إلى مكة ولكن أبا جهل أبى إلا أن ينزل بدرا ويستأصل الصحابة ويشرب الخمور ويضرب الدفوف وتغنى له الغانيات ، فنزل بدرا فشرب الدم الناقع من رأسه وضربت عليه دفوف النوادب وغنت له المنايا الحارة ، وانتقم الله منه ومن معه لأنهم ابتدوا رسول الله بالحرب فأمكن الله منهم ، ومن كان همه نكث الأيمان ، والهم بإخراج الرسول والبدء

بالقتال ظلما وتلك الخصال الذميمة تتوجب على كل مؤمن أن يقاتلهم نصرة لله تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين قتالا بعزيمة صادقة وبإقدام من غير أن يخشاهم فإنهم مهما كثر عددهم وعددهم فهم الأقلون الأصغرون قال تعالى . (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وفى قوله تعالى (أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ) حث للمؤمنين على قتال أعداء الله تعالى وأعدائه (والهمزة) هنا للاستفهام وللإنكار (والخشية) عمل من القلوب ولا تكون إلا من الله تعالى ، وأهل القلوب المريضة يخشون غير الله تعالى لضعف إيمانهم .

(فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

هذه الآية الشريفة تهديد من الله تعالى لأهل الإيمان الكامل الذين وقع بهم العلم على عين اليقين فتحققوا تفريد الله تعالى بالألوهة والإيجاد والإمداد وأنه جل جلاله هو الذى يخشى لا غيره ، ولا خشية إلا بعد العلم بمكانة من يخشى علما يرسم على جوهر النفس صولة المعلوم جل جلاله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) و (ان) هنا من لازمها عدم الجواب إذا عدم الشك ، أى : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا .

قوله تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)) .

هذه الآية الشريفة أمر من الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين بقتال المشركين الذين بين سبحانه عداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين كما تقدم .

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

كيف يعذب الله قريشا بعد قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) ؟ !

هذه الآية بشرى من الله لنا بأن نذلهم قتلا ، أو نعذبهم بعد النصر عليهم وفى قوله تعالى (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) يظن الجاهل أن هذه الآية تتعارض مع قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) فكيف يقول يعذبهم الله بأيديكم هنا ، والمعنى : أن العذاب الذى نفاه الله عنهم إكراما لوجود حبيبه (صلى الله عليه وسلم) هو عذاب الاستئصال كما استأصل قوم هود وشعيب وصالح وقوم إبراهيم وموسى عليهم السلام ممن خسف بهم الأرض وممن ابتلاهم بالمسخ والوعد والغرق ، أما قوله تعالى (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) أى يهلك مردتهم وأكابر مجرميهم ؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعثه الله رحمة عامة للعالمين فحفظ به العالم أجمع ، فما أحد من الإنس والجن بل ومن الحيوانات إلا وجعل له قسطا وافرا من رحمة الله إكراما له (صلى الله عليه وسلم) وصدق الله العظيم : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ).

ورسول الله فينا إلى يوم القيامة وهو (صلى الله عليه وسلم) الشفيع المقبول الشفاعة يوم القيامة فهو رحمة الله العظمى فى الدنيا وإحسانه ومغفرته يوم القيامة .

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ)

أى : يخزهم بالأسر والرقة والجزية (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) أى : يشفى صدور بنى خزاعة ، الذين قتلت منهم قريش بعد عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانوا حلفاءه عليه الصلاة والسلام فخانوا عهده (صلى الله عليه وسلم) فيهم ، وهذه الآيات كلها وإن كان سببها خاص فحكمها عام إلى يوم القيامة ؛ فيجب على المؤمن قتال كل كافر خان عهد الله وذم المؤمنين وطعن فى الدين ، ويتعين قتال كل عدو أدخل فى الدين وليجة أو نصر أعداء الله تعالى وأعدائنا ، ولا مندوحة فى هذا إلا ما رخص الله لنا فيه من التحيز إلى فئة أو من التحرف للقتال .

قوله تعالى : (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15))

المراد بقوله : (يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) يعنى بنى خزاعة الذين تقدم ذكرهم، (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) أى : ويهدى الله للإسلام من يشاء ممن يرجعون إلى الله تعالى بقتالكم إياهم ، وجائز أن يكون ذلك خبرا من الله تعالى عن المستضعفين الذين كانوا بمكة ورجعوا إلى الشرك بالله تعالى متظاهرين بذلك لحفظهم من المشركين (وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ) أى : عليم بما قدره على عباده أزلا من هداية أو إضلال و(حَكِيمٌ) فيما أبرزه من الأحداث التى قدرها سبحانه وهو القادر الحكيم .

الأمر بالقتال لأمراض النفس :

وهذه البشائر المترتبة على السمع والطاعة لله فى أمره بقتالهم فيه شفاء أمراض النفس الشهوانية والغضبية نتيجة لفقد محبوب أو تأخير نيل مرغوب فيه ، ودعت إليه الضرورة الماسة أو الرغبة فى الكمال من كل شئ ، فيكون قتالهم مستأصلا للعدو والمنازع وهو معنى (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) أى مذلا لهم بالأسر والرق والجزية وهو معنى (وَيُخْزِهِمْ) وبذلك تفوز النفس بمرارها وفى هذا العلو والعلية وهو قوله تعالى : (وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) وبذلك تفوز النفس بما جبلت عليه من حب نفوذ الكلمة وعلو الجاه والقيام بالفضائل بنيل تعذيب العدو وخزيه والنصرة عليه بتلطف الأمر ، ويرق ويصفو جوهر النفس من مرض الضيق ووغر الصدر وهذا معنى قوله تعالى : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) وبالقتال تنكسر ثورة النفس الغضبية وتطفأ شعلة ثورة الشهوانية فيعتدل المزاج ويقبل على الحق وهو معنى قوله تعالى : (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) .

قوله تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)).

(أم) منقطعة (والهمزة) هنا للاستفهام الإنكارى التوبيخى ، و (الميم) تجعل الاستفهام يفيد التوسط فى الكلام ، وهى بمعنى (بل) والمخاطب بها المنافقون ومن فى قلوبهم مرض من ضعفاء الإيمان (حَسِبْتُمْ) أى : ظننتم وزعمتم ، ولكن لفظ (حَسِبْتُمْ) ارجع من الظن والزعم .

حكمة الأمر بالقتال :

وسبب الآية : أنه تعالى لما أمر المؤمنين بقتال المشركين الذين خانوا عهد الحديبية وغدروا وقتلوا خلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجبن المنافقون ومرضى القلوب وحسبوا فى أنفسهم أن يتركوا على ما هم عليه من النفاق ومرض القلوب ، ظانين أنهم لا يختبرون بالبلايا التى تكشف الستار عما أشربته قلوبهم من الكفر ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب ، فيعلم المؤمنون أشخاص أهل النفاق وأهل الحرص على الدنيا ، والله جل جلاله غنى عن العالمين وهو قادر جل جلاله أن يجعل الناس جميعا على قلب أتقى صديق أو يجعلهم مردة وشياطين ، ولكنه جل جلاله أمر ونهى وجعل الأمر والنهى ميزانى قوة الإيمان وضعفه ، ولما كانت أوامره جل جلاله كلها يستوى فى القيام بها المنافق والمؤمن أمر بالقتال ليعلم المؤمنون بالبرهان المؤمن المخلص من المنافق أو ضعيف الإيمان ، وفى هذه الآية صرح لنا بتلك الحقيقة ، ولم يخاطب بهذه الآية مؤمنا كامل الإيمان ، وقوله تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ) أى : بل حسبتم أيها المنافقون يا ضعاف الإيمان (أَنْ تُتْرَكُوا) أى : يترككم الله تعالى من غير اختبار وتجارب وامتحان لتنكشف سرائركم أمام عبادى جلية فيحتاطون منكم على دينهم .

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

الله تعالى يعلم الكليات والجزئيات من الأزل إلى الأبد :

(الواو) للحال ، و(لَمَّا) للنفى مع التوقع ، وقوله تعالى : (يَعْلَمِ اللَّهُ) معلوم أن ما يعلمه الله تعالى موجود وواقع أو لابد من وجوده ووقوعه ولا وجود لما لا يعلمه الله تعالى ، وليست (لَمَّا) هنا لنفى علم الله بالجزيئات حتى تبرز فى الإيمان الظاهر ، ومن فهم هذا وقال به من الموثوق بهم من العلماء فإنما نظر إلى ظاهر اللفظ من غير رعاية المعنى المراد له تعالى ، فإن الله تعالى يخاطب المنافقين بقوله تعالى : (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) أى : إن الله تعالى يعلم الكليات والجزئيات من الأزل إلى الأبد بعلم ذاتى، وهو سبحانه جعلهم فريقين فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير ، وأبرز الفريقين فى الدنيا ليعلم أهل الإيمان قدر ما تفضل الله به عليهم من الأسباب ، ولتقوم الحجة على الفريق الأخر أنهم أصحاب النار

حتى إذا ساقهم الزبانية إليها دخلوها معترفين باستحقاقهم الدخول نادمين على ما فرطوا، وقالوا : كما أخبر الله تعالى عنهم (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[1] .

تأويل الآية :

وتأويل هذه الآية : أم حسبتم أن تتركوا ولما يبرز الله تعالى معلومه الذى قدره أزلا من نفاق المنافقين، وريب ضعفاء الإيمان يظهره سبحانه لأهل الإيمان ليعلموا المؤمن الصادق من المنافق علما يحتاطون به من مولاتهم ويحذرون من كيدهم وختلهم وسوء نواياهم. وقوله تعالى : (الَّذِينَ جَاهَدُوا) أى : الذين بذلوا ما فى وسعهم للقيام بما أمرهم الله تعالى والبعد عما نهاهم عنه سبحانه بأهل الإيمان وعقوبة للمنافقين وغيرهم وخزيا لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

(وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً)

أى : ولما يعلم الله الذين لم يدنسوا إيمانهم (باتخاذ وليجة) أى : بطانة من الأعداء ؛ لأن الوليجة هى الشئ الذى يدخل فى شئ ليس منه كدخول الأعداء فى المؤمنين كما يفعل أهل النفاق ، والمعنى : لم يتخذوا من أهل الكفر بالله أصحابا يبيحون لهم بأسرارهم ونواياهم فإن المؤمن الكامل ليس ملجأ يلتجئ إليه في شدته ورخائه إلا الله ، ولا ولى له إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا أخا له بالمعنى الكامل إلا المؤمن ، ومن اتخذ غير الله ورسوله والمؤمنين وليجة أى : معينا ناصرا ووليا فليس بمؤمن وإن ظاهر بأعمال الإيمان كلها .

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هذه الآية أبطلت قول القائلين : إن الله لا يعلم الجزيئات إلا بعد حدوثها، فإن معنى خبير تدل على علمه تعالى بما هو كائن كليا كان أو جزئيا قبل وجوده وإحداثه ، وكأنها حجة قاطعة على بطلان ما فهمه بعض العلماء ، وهذا لا يمنع أن لهم أجرا عظيما عند الله لأنهم اجتهدوا وبحثوا وإن جانبهم التوفيق ، قال تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)[1] وقد أحسنوا عملا وإن لم يحسنوا موافقة الحقيقة فى نفسها ، وقوله تعالى : (بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : خبير بعمل قلوبكم وجوارحكم فيجازى كل عامل بعمله.

قوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : أن العباس بن عبد المطلب لما أسر فى بدر عنفه بعض المهاجرين على موالاته للكفر وحربه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشدد عليه على رضى الله عنه مبينا له محاسن الإسلام وفضائله ، فقال له العباس : (ونحن لنا محاسن فنحن حجاب الكعبة وسقاة الحاج وعمار المسجد الحرام) فأنزل الله تعالى قوله : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ) وفى قراءة (مسجد) فقراءة الإفراد لا تحتاج إلى تأويل ؛ لأن المراد بالمسجد هو : الحرم، وعلى قراءة الجمع يكون المراد به : الحرم أيضا لأن الناس يصلون فيه متجهين إلى جهات أربعة فكل جهة تسمى مسجدا ، وجائز أن يكون المراد بالجمع كل المساجد ولما كان الحرم قبلتها وإليه تتوجه الوجوه فى الصلاة فكان أولى من كل المساجد بهذا و(المشركين) هم الذين اتخذوا لله ندا أو ولدا أو شريكا (وعمارة المسجد) هى : إقامة الصلاة فيه مع ترميمه والمحافظة عليه من الاندثار .

وجائز أن يكون المراد تفريد الله تعالى بالعبادة دون غيره من الأوثان والأصنام ، وجائز أن يكون المراد بعمارته ترميمه وتطهيره من عبادة غير الله تعالى فيه ، فنفى الله تعالى نفيا باتا تولى المشركين شأنا من شؤون مسجد من مساجد الله تعالى وبالأولى الحرم الشريف .

---

(1) السجدة : 12 .
(1) الكهف : 30 .

حكم الصلاة فى مسجد بناه مشرك :

وعلى هذا فيكون المسجد الذى يبنيه المشرك ولو بناه نذرا تكره فيه الصلاة ولا تقام فيه الجمعة إلا إذا أقره المسلمون ،أما ما تبنيه دول الظلمة المغتصبون للبلاد الإسلامية من المساجد أو يرمموا فيه بأموال المسلمين متحيزين إلى فئة أو متحرفين لقتال فتلك المساجد لا تحرم الصلاة فيها ؛ لأنها من أموال المسلمين .

تحريم وجود الكفار بكل جزيرة العرب :

كما أنه يحرم دخول المشرك أو الكافر مسجدا من مساجد الله تعالى بدون إذن ، ويحرم بتاتا بإذن وبغير إذن دخول كافر مكة فضلا عن الحرم، ويحرم إقامة الكافر بالحجاز مطلقا بحسب الوصية التى وصى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحرم مطلقا إقامة الكافر بكل جزيرة العرب إلا إذا دعت الضرورة الفادحة . أسأل الله تعالى أن يعيد لنا مجد سلفنا الصالح ويمدنا بروح منه حتى نطهر جزيرة العرب من وجود غير المسلمين بها ، وقد كنت قررت هذا الموضوع ومعى صديقنا الزعيم العظيم شوكت على وشقيقه محمد على ونحن بالمؤتمر الإسلامي بمكة ولكن السياسة العمياء أبت إلا أن تكيد بالمؤتمرين ، وقد فصلت ذلك فى رسالة جماعة الخلافة بوادى النيل[1].

ظهر من هذا التقرير أن عمارة المسجد وترميمه محرمة على المشركين وعمارته بالعبادة والطاعة وإقامة الحدود وتلقى العلوم محرمة على المشركين ، اللهم إلا إذا دعت الضرورة الفادحة إلى إقامة غير المسلمين بالحجاز أو بجزيرة العرب ، فإن ذلك يجعل المسلمين المستضيفين فى حل من المؤاخذة ، وهى رخصة دعى إليها التحيز إلى فئة أو التحرف للقتال . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " .

(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)

تأويل هذه الآية الشريفة : أن المشركين كانوا فحول البلاغة وأبطال الفصاحة ، وقد تحداهم الله تعالى بما هم فرسانه كما تحدى عيسى ابن مريم أمته بالطب ، وتحدى موسى قوم فرعون بالسحر ؛ فكذلك الله تعالى تحداهم مع رسوله (صلى الله عليه وسلم) بما هو من نوع كلامهم فعجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه ، فدل ذلك على أن قلوبهم كانت مؤمنة أن محمدا رسول الله حقا ، وأن ما جاء به من عند الله حقا ولكن نفوسهم عنادية وتعصبهم لألهتهم وأجدادهم أعمى عيونهم عن النظر فيما جاءهم به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من إقامة الحجة ووضوح المحجة ، وهذا معنى الآية : أنهم يشهدون بضمائرهم أنه (صلى الله عليه وسلم) على الحق ولكن العناد كفر ، والحسد شر ، والحرص على الجاه والمال ونفوذ الكلمة يلقى الإنسان فى نار جهنم من غير روية ولا فكر ، وإنا لنرى فى بعض النفوس شهوة رديئة أو شيئا قليلا من المال يميل بنا عن الحق ويدعونا إلى التغاضى عنه مع كمال يقيننا أن ذلك يغضب ربنا ، فكيف يقوم من يسلب منهم الملك ، فيرى الرجل عزيز القوم يصبح ذليلا وذليلهم يصبح سيدا مهيبا ويرضى بذلك ، ولكن الله جل جلاله يعز من يشاء ويذل من يشاء والخلق جميعا عباد الله ، وأمره ونهيه وابتلاؤه جل جلاله قد سوى عنده بين العبد الحبشى والسيد الشريف الهاشمى ، كما كان لا فرق عنده سبحانه بين إنسان خلقه من طين وبين من خلقه من نور أو من نار فعظم الطين وأمر الملائكة بالسجود له فمن سجد قبله ورفعه ومن أبى طرده وخفضه .

وجائز أن تقول : المعنى أنهم شهدوا على أنفسهم بخيانتهم عهد الحديبية مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقتلهم بنى خزاعة وعبادتهم صورا وهياكل من الخشب والحجر صنعوها بأيديهم ويقدموا لها تعظيم الألوهية مع اعترافهم بأنهم صنعوها بأيديهم وكفى بذلك كفرا .

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

الإشارة عائدة إلى المشركين المتقدم ذكرهم (حبط الشئ) انتثر وضاع ، والأعمال لا تحبط ؛ لأن الله تعالى يعلم كل شئ ، والتوبة : إنما هى الستر فقط ولكن معنى حبطت هنا أنهم حرموا الجزاء عليها ؛ لأن أهل الشرك بالله تعالى كانوا يعبدون ما عدلوا به ويبذلون أموالهم وأنفسهم للتعظيم والإجلال لشركائهم معتقدين أنهم ينفعونهم ويدفعون عنهم الضرر

---

(1) عقب إلغاء الخلافة الاسلامية بتركيا على يد كمال أتاتورك أسس الإمام رضى الله عنه جماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل عام 1924 م .

ويقربونهم إلى الله زلفا ، فأخبرنا الله تعالى أن تلك الأعمال التى عملوها والأموال التى بذلوها حبطت ؛ لأن الخلق يوم القيامة ثلاثة أنواع : نوعان لا يحاسبان أبدا وهما أهل الشرك بالله وأهل الإيمان الكامل ، وأما أهل الشرك بالله فيساقون إلى جهنم من غير حساب ولا سؤال قال الله تعالى (لَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) وقال تعالى : (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) . وأما أهل الإيمان فإنهم يحملون على رفارف العناية إلى الفردوس الأعلى من غير حساب ولا سؤال : قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)[1] والمحاسبون هم علماء المؤمنين وهم بين فضل الله تعالى وعدله ، فإما مغفرة وعفو وتفضل من الله عليهم برياض الجنة وإما حساب وعدل وتطهير فى النار.

(وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

(النَّارِ) معلومة (والخلود) معلوم وللسائل أن يسأل : إن القوم أعمارهم لم تتجاوز المائة سنة فى الكفر فمن العدل - على حسب عقولهم - أن لا يعذبوا عذابا مخلدا ؛ لأنهم يستحقون أن يعذبوا بقدر أعمارهم فقط ، والجواب أنهم لو خلدوا فى الدنيا لداوموا على الكفر . فالله تعالى يعذبهم بما علمه فيهم كما أن المؤمن يعيش مؤمنا عشرين سنة أو أكثر ولكنه يخلده الله تعالى فى الرضوان الأكبر ، لو رأينا العدل لنعم عشرين سنة ، ولكن الله عامله بما علمه فيه ، لأنه لو خلد فى الدنيا لدام على إيمانه وتقواه .

قوله تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)) .

عمارة المساجد محصورة فيمن جملهم الله بخمس صفات :

بعد أن حرم الله على المشركين عمارة مساجد الله بين سبحانه وتعالى صفات من يعمر مساجد الله ، فافتتح الآية بأداة القصر (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ). فحصر عمارة المساجد فيمن جملهم بخمس صفات وابتدأ بالصفة العليا فالتالية وذكر منها سبحانه خمس صفات .

أولا : الإيمان بالله

أولها : الإيمان بالله وهو أصل الدين وأساسه وما عداه فروعه وكل فروع لم تسند إلى هذا الأصل فهى باطلة ، ومعنى الإيمان بالله هو التصديق بالقلب بأنه جل جلاله واحد أحد فرد صمد إله معبود تنزه عن الشبيه والمثيل والولد والوالد ، ومن الإيمان بالله التصديق بما جاءنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عند الله تعالى مع التصديق بأن محمدا عبد الله ورسوله لاندماج الرسالة فى الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله لم يأتنا به إلا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فثبت أنه رسول الله عقيدة بالقلب وإقرارا باللسان .

الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان :

فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه فليس بمؤمن عندنا ، ومن أقر بلسانه ولم يؤمن بقلبه فهو منافق ، وإن كان بعض أهل المعرفة يرى أن عقد القلب على التصديق بما جاءنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الإيمان وإن لم يعترف باللسان ، فللقوم فى ذلك عذر لأن القلب إذا عقد على حقيقة الإيمان نشطت الجوارح إلى القيام بفروضه ، وما باشر الإيمان قلبا إلا وهش له وبش وتمثل جوهر النفس رسوم الإيمان فسارع العبد إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض .

ثانيا : الإيمان باليوم الآخر

(وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

---

(1) الأنبياء : 101 .

اليوم الآخر : هو مقابل الدنيا ، لأن الدنيا هى الأولى والقريبة ، ويوم القيامة هو اليوم المتأخر عنها الذى هو بعد الدنيا، لأن لفظة دنيا يعنى الدانية وفيها إشارة إلى الدونية ، واليوم الآخر : هو المقصود المرغوب فيه الذى يتمناه كل عاقل لأن أهل العقل لا يعملون للوقت الحاضر وإنما يعملون للمستقبل .

الإيمان باليوم الآخر حجة على صحة الإيمان :

والإيمان باليوم الآخر هو الحجة القائمة على صحة إيمان العبد ، لأن الإنسان مكون من جسم وروح وما بينهما قوى تربطهما ، فكمال الروح بالإيمان الذى هو التصديق اليقينى، وبكمالها تفوز بجنتها الخصوصية التى بدايتها حب الله تعالى على قدر ما فقه الإنسان من آيات القرآن المنبلجة فى آيات الكون المحيط بنا فى الأفق المبين ، أو أنواره الظاهرة لأهل الشهود فى الأفق الأعلى ، وفوق ذلك رضوان الله الأكبر ، وفوقه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما لا تفى به عبارات المعبرين إلا بقدر ما تسعه الألفاظ من دلالاته التضمنية أو الالتزامية .

جنة المعرفة بالله :

وكمال الجسم بالمسارعة إلى القيام بأحكام الشريعة المطهرة وبذلك يدخله الله تعالى الجنة المخصوصة التى هى جنة المعرفة به سبحانه ، والمعرفة تخرج العبد من ظلمات الشرك وظلام الجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وفوق ذلك أن يرزقه الله تعالى من حيث لا يحتسب فى الدنيا ويقيمه فى محابه ومراضيه بحسن التوكل عليه سبحانه وبتفويض الأمور كلها لله بعد الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة وفوق ذلك حسن الخاتمة عند موته بخروج روحه راضية مرضية ، وفوق ذلك أن يكون البرزخ روضة من رياض الجنة ، وفوق وذلك أن يكرمه الله تعالى يوم القيامة فيبعده عن النار بل وعن حسيسها والإسراع به إلى الجنة حيث النعيم المقيم والحبور فى روضاتها .

ولا يكون كمال الجسم إلا بأن يجاهد العبد نفسه فى حصون أمن الشريعة بقدر مقامه الذى أقامه الله فيه، والإيمان بيوم القيامة من جواذب الجسم بعامل التمثيل والرغبة واليقين حتى يكون متمثلا نعيم الآخرة وعذابها فيفر من العذاب إلى النعيم على معارج المجاهدة ، وقد شنع الله تعالى وهدد أهل الغفلة الناسين يوم القيامة بقوله تعالى : (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا)[1] أى : يحرمهم الله تعالى من العفو والمغفرة ومن الرحمة ومن النعيم ؛ لأنهم فروا من حصون الشريعة التى لم تطقها أنفسهم إلى جنة الدنيا من الشهوات والملذات والإباحة لما حرمه الله تعالى . أعاذنا الله تعالى بوجهه الكريم من نسيان يوم القيامة .

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ)

إقامة الصلاة هى الصفة الثالثة ، وإيتاء الزكاة هى الصفة الرابعة ، وخشية الله تعالى هى الصفة الخامسة .

ثالثا : إقامة الصلاة

المقصود من إقامة الصلاة :

وإقامة الصلاة : أن يصلى المسلم بكل قواه البدنية ولطائفه الروحية حتى لا يقف أمام الله بجسمه فقط بل بروحه وعقله وبكل القوى الأخرى من الخيال والوهم والقوى المفكرة والحافظة والمدركة وبكل قوى النفس وبهذا يكون أقام الصلاة حقا ، ومن لم يكن للصلاة بهذا المفهوم فلا صلاة له فى نظر العارفين بالله ، قال تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5))[2] ولم يأمرنا بالصلاة أبدا وإنما أمرنا سبحانه بإقامة الصلاة .

حكم من صلى بجسمه :

وقد تقدم بيان الإقامة للصلاة ومن صلى بجسمه فقد أسقط الواجب عليه أمام الخلق ، ولكنه حرم مواجهة الله تعالى له فى الصلاة وأنسه به وتعظيمه لله جل جلاله ، قال تعالى : (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)[3] . وتلك الرعاية يحافظ عيها كل مسلم

---

(1) الأعراف : 51 .
(2) المعاون : 4 – 5 .
(3) العلق : 19 .

وخصوصا الفرائض ، وركعة واحدة من تلك الصلاة أفضل من صلاة الملائكة العمر كله ؛ لأن الملائكة مفطورون ونحن مكلفون بالجهاد ، لاختلاف حقائقنا التى خلقنا الله منها وجمعها فينا .

ولما كانت الآية الشريفة خبرا عن الله فيمن يعمر مساجده (والمساجد) إنما ندب بناؤها لإقامة الصلاة فيها ولتعليم الإيمان بها ، فثبت أن المراد بعمارتها تأسيسها وترميمها وعبادة الله فيها وإنارتها ، فمن أقامها وهو مشرك أو مخالف للشريعة فانه يحرم من الأجر ومن أن يكون من عمارها .

رابعا : إيتاء الزكاة

تعريفها :

(وَآتَى الزَّكَاةَ) (الزكاة) ركن من أركان الإسلام ، وهى : إخراج جزء معلوم من نوع ما يملك من وجبت عليهم الزكاة بعد زمن معلوم لانواع من الناس لا تتعداهم .

ولما كانت المساجد تجمع الفقراء والمساكين ذكر إيتاء الزكاة عند ذكر من يعمر المساجد ، ليكونوا من ضمن الأنواع التى تجب لهم الزكاة ، وفى سبيل الله تعالى ، وتشيد المساجد ، من سبيل الله ذكرها الله تعالى بتلك الروابط .

خامسا : الخشية

الخشية فوق الخوف

(وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) هذه هى الصفة الخامسة إذا جعلنا الإيمان بالآخرة هى الصفة الثانية . والخشية : من عمل القلوب وهى فوق الخوف ؛ وذلك لأن الخشية : خوف ناتج عن رعاية ، فأهل الخشية دائموا الرعاية ، وأما أهل الخوف فإنهم يخافون عند مقتضيات الخوف فقط ، ولذلك فقد قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[1] . (والخشية من الله) تلتزم استغراق العبد فى رعاية جلال الله وعظمته سبحانه ، ولا يبلغ الأتقياء مقام التقوى إلا بالخشية من الله تعالى ، ومن ادعى العلم ولم يخشى الله فى كل أنفاسه ولحظاته وحركاته وسكناته فهو كاذب فى دعواه .

الفرق بين الخوف والخشية :

وتأويل هذه الآية : أن الخوف سجية من سجايا الإنسان كاللذة والألم والحب والبغض ، وقد يكون الخوف من وقوع مؤلم أو فقد محبوب فيخاف الإنسان غير الله تعالى من ظالم أو وحش لأن ذلك من غريزة الإنسان ، ولكن المؤمن الكامل لا يخشى أحدا إلا الله ، وقد بينت لك الخشية : أنها خوف مع رعاية ، وذلك لا يكون إلا من الله تعالى ، ولا تكاد الخشية توجد إلا عند أهل المحبة ، فإن المحبة تدعوا إلى الرغبة والرهبة فلا تقهر عوامل الرهبة بواعث الرغبة فيحصل اليأس والقنوط ، ولا تقهر عوامل الرغبة مقتضيات الرغبة فيحصل أمن الله تعالى قال تعالى : (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) .

فمعنى ولم يخش إلا الله : أن المؤمن الكامل وإن كان يخاف غير الله تعالى لاعتقاده إطلاق الجناب المقدس إطلاقا يجعله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، فهو إن خاف غيره فإنما ذلك لأنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، فهو وإن خاف غيره فإنما ذلك لأنه سبحانه هو الذى أقام الأسباب وجعلها وسطا بينه وبين عباده ليظهر فاعلا مختارا ، أما الخشية فإن المؤمن لا يخشى إلا الله .

والآية تفيد (القصر) وهو حصر الصفة فى الموصوف ، فقوله (وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) أى : لا تحصل خشية فى المؤمن إلا من الله فلا يخشى سواه ، ولا تتعدى الخشية فى قلب المؤمن إلا غير الله ، ومن أحب الله تعالى من غير خشية هلك إذا أمن جنابه ، ومن خشى الله تعالى من غير محبة هلك باليأس والقنوط ،ولابد فى طريق الله تعالى من جمع الخوف والرجاء والخشية والمحبة والرهبة حتى تتوازى قوى الإنسان توازنا تجعله وسطا .

(فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

---

(1) فاطر : 28 .

الفاء هنا للفصيحة (وعسى) هنا للتحقيق وإن كانت تفيد الترجى إلى أن لعل وعسى من الله تعالى للتحقيق ، ولكن الله ذكرها هنا بخصوصها ليعلمنا الأدب معه ودوام رعاية الخشية منه سبحانه ، فانظر كيف يذكر الله أكمل صفات المؤمنين وهى الإيمان بالله واليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحصر الخشية فى القلوب من الله تعالى فلا يخشى المؤمن من أحد سوى الله تعالى ، ثم بعد أن يخبرنا أن المؤمن تحقق بهذه الصفات يخبرنا بقوله : (فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) ليبين لنا أن المؤمن إذا صام نهاره وقام ليله وعقد على الإيمان الكامل قلبه فإنه مع هذا كله لا يأمن جانب الله تعالى ولا يعتقد نجاته من الله ليقينه الحق أنا لا نقدر ربنا جل جلاله، وأن أعمالنا الصالحة وأموالنا الكثيرة وجهادنا الطويل هو نعمة من نعم الله علينا توجب علينا ذكره وشكره ، وإن ذكره وشكره نعمة أخرى من نعم الله علينا ونحن عاجزين عن شكره فكيف نرى لنا عملا نعتمد عليه عند الله ، وهو مقام الأدب الكامل للعبد مع ربه .

(لعل وعسى) فى الآية تفيد ترجى المؤمن حسن الخاتمة :

وقد قرر العلماء أن (عسى ولعل) فى القرآن المجيد للتحقيق فهى هنا بمعنى اللام، والمعنى فلأولئك الهداية من الله تعالى ، والإشارة عائدة على من ذكرهم الله متصفين بما أثنى به عليهم من الصفات المذكورة قبلا .

وقوله (مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (من) هنا للتبغيض ؛ لأن المهتدين أنواع : منهم من هداهم الله للإسلام ؛ ثم رفعهم فهداهم إلى الإيمان ؛ ثم رفعهم فهداهم إلى الإحسان ؛ ثم رفعهم فهداهم إلى الإيقان ، ولما كانت تلك الصفات جامعة للأعمال البدنية والقلبية والمالية كان بذلها بالجهاد فى سبيل الله الذى يضحى فيه المؤمن بنفسه وماله بالزكاة التى يضحى منها بالمال وبالحج الذى يخاطر فيه بالنفس والمال ، حجة قائمة له على أنه عظم رضوان الله وضحى بكل شئ فى الدنيا ، وبعد القيام بكل تلك الأركان يقول تعالى : (فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) فيه إشعار بترجى المؤمن حسن الخاتمة .

قوله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال للعباس ابن عبد المطلب ولطلحة ابن شيبة بعد الفتح : هلم فهاجرا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال العباس : (أنا أسقى الحاج وأعمر المسجد الحرام) وقال طلحة : (أنا صاحب البيت ومفتاحه فى يدى ولو شئت لبثت فيه) فقال على (وأنا صاحب الجهاد) فأنزل الله هذه الآية (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فذكر الله تعالى ثلاث صفات هى أفضل الأعمال، وتأويل الآية على قراءة (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ) بضم السين (وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) بفتح العين والميم ليستقيم المعنى ، وتأويل آخر : أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ، وتأويل آخر : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ، وتأويل الآية على مقتضى التأويل بقوله : سُقاة الحاج وعَمَرة المسجد الحرام أقرب للفهم ، وقد تقدم الكلام على الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيل الله : هو بذل النفس والنفائس جهادا فى أعداء الله لإعلاء كلمة الله تعالى ، وتقدم الكلام على الإيمان باليوم الآخر .

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)

أى ليسوا سواء عند الله ، وعلى هذا التأويل الذى هو جعل الخطاب للمؤمنين تكون المعنى أن المؤمنين الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر وجاهدوا فى سبيل الله أفضل وأكمل عند الله من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يجاهدوا، ونرجح هذا الفهم لأن الآية نزلت بعد فتح مكة (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) هذه الآية تدل على أن الخطاب للمشركين لأنها خبر من الله تعالى لنا أنه سبحانه لا يهدى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، ولما كان سياق هذه الآية الشريفة : بيان أحكام المسجد الحرام جائز أن تكون المعنى : (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الذين ظلموا المسجد الحرام بوضع الأصنام لعبادتها ، مع أن الخليل شيده لعبادة الله تعالى فظلموا أنفسهم بالشرك وظلموا المسجد الحرام فى استعماله فى غير ما وضع له ، وقد تقدم الكلام على (الهداية) وهنا نفى الله عنهم هداية الإحسان وإن هداهم هداية البيان ببعثه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم يدعوهم إلى الإسلام .

قولـه تعـالى : (الَّـذِينَ آَمَنُـوا وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِـي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِـهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ أَعْظَـمُ دَرَجَـةً عِنْـدَ اللَّهِ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْفَائِزُونَ (20)) .

كما قال سبحانه : (أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) لأن عباد الأوثان كانوا يعتقدون أن عبادتهم خير ، وكذلك هنا فإنهم كانوا يعتقدون أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام خيرا عند الله بحسيب ما كانوا عليه من الشرك ، وجائز أن تكون المعنى ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا أعظم درجة عند الله من غيرهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا ، ولو أنهم قاموا بعد الإيمان بالسقاية وعمارة البيت ، فإذا كان المهاجرين والمجاهدين أعظم درجة عند الله من المؤمنين الذين لم يهاجروا ولم يجاهدوا فكيف تكون درجتهم بالنسبة للمشركين (أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) الإشارة عائدة إلى من أثنى الله عليهم بالإيمان والهجرة والجهاد الذين فازوا بما بشرهم فى الآية (والفوز) هو النجاة والظفر بكل القصود .

قوله تعالى : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21)) .

بعد أن أثنى سبحانه على أهل الإيمان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيله وأخبرنا سبحانه بأنهم هم الفائزون بفضله تعالى فأظهر إحسانه اللائق بكماله لهم بقوله سبحانه وتعالى : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ) .

فرح أهل الجنة بهذه البشرى :

(البشرى) لغة : هى خبر بخير لم يسمعه المخاطب من قبل ، ولما كانت البشرى لهم من الله جل جلاله كان فرح أهل المحبة بها فوق فرحهم بالجنة ، لأنها بشرى من الله تعالى والقليل من الحبيب عظيم جدا فكيف بالعظيم من العظيم جل جلاله ، ففى هذه الكلمة الصغيرة لأهل القرب من الله تعالى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأى روح تسمعه جل جلاله يقول : يبشرهم ربهم ولا تفر من الكونين – كونى الدنيا والآخرة – شوقا إليه جل جلاله ومسارعة إلى الاتحاد به جل جلاله ، فابتدأ الآية بالمقام الأعلى ، لأنه يبشرهم ربهم بأعلى المقامات .

هذه البشرى فى الدنيا والآخرة :

وهذه البشرى عامة كما قال : (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ) فهى بشرى فى الدنيا : بما ينالهم من المواجهات الربانية والمنازلات الرحمانية وتفضل حنانى من علم وحال ويقين عين ويقين حق وما يقيمهم فيه من أعمال محابه ومراضيه، فقد يكون الرجل منهم لا يتجاوز الخمسين من عمره ويقيمه الله تعالى فى مقامات يملأ بها الأرض علما ونورا ، وقد يملؤها عدلا وفضلا فيكون يومه فى العمل كعمل عشر سنين من تقى (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) .

وما يتفضل به عليهم سبحانه يوم القيامة من مواجهة لوجهه الجميل وموانسة على بساط منادمته ، وما هو فوق ذلك مما أخبرنا سبحانه به فى قوله : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وما الذى يشاؤه من عرف ربه معرفة بلغ فيها مقام حق اليقين إلا دوام النظر إلى وجهه العلى ، وهذا ما يمكن أن يتصوره إنسان فى هذا الكون بالنسبة لفضل الله العظيم الذى يمن به على أحبابه .

(بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) (الرحمة) هى خير الجسم والحس والعقل فى الدنيا والآخرة، ولما كانت البشرى من ربنا جل جلاله لنا ناسب أن نفهم قوله تعالى : (بِرَحْمَةٍ) أى : بخير يناسب المعطى سبحانه والمعطى له، وذلك الخير هو ما يحفظ به الجسم والحس والعقل من الشغل بغيره ولغيره حتى يكون العبد مستغرقا بالكلية فى ذكر الله وشكره وعبادته فى الدنيا ، ويكون فى الآخرة مؤانسا كمال الانس بالنعيم (وَرِضْوَانٍ) فى الدنيا والآخرة ، والرضوان : هو خير الأرواح فى الدنيا : من كمال اليقين الحق الذى يستحضر به معية الله تعالى ، وعندية ربه ويتلقى العلم من لدنه جل جلاله ، وفى الآخرة : مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وَجَنَّاتٍ) الجنات : هى البساتين التى جمع الله لهم فيها خيرات الحس والجسم والعقل (لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ) النعيم المقيم : هو النعم المتوالية المطهرة من كل شوب وكدر وقطع ومنع .

قال تعالى : (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)) .

الجنة نعيم لا ينتهى :

الخلود : هو توالى النعيم مع الصفا والحظوة من غير انقطاع (أَبَدًا) بيان من الله تعالى للعقول التى تفهم الخلود أنه طول الإقامة مع الانتهاء لأنها تقيس الغائب بالحاضر والمجهول بالمعلوم ، ولما كان لفظ الخلود بهذا المعنى يجعل المؤمن فى الجنات قد يلم بقلبه خاطر الانتهاء فيشوب النعيم شوب ينغمص صفو قلبه قال سبحانه (أَبَدًا) لأن مادة الأبدية الاستمرار بغير انقطاع وتستكمله دواعى النعيم والمسرات ، ولم يكن قوله (أَبَدًا) توكيد ولا تكرار.

وهنا لطيفة : وهى أن الله تعالى لما قال (وجنات) أى بساتين ، ربما توهمت النفوس بأن نعيمها الحقيقى لم يتم ، ففرحها الله تعالى بقوله لهم فى تلك البساتين نعيم ، والنعيم : هو النعمة الخالدة بغير انقطاع ، الصافية من كل شوب أو عناء ، ونعيم على وزن فعيل وهى صيغة مبالغة تفيد كمال النعمة من كل أنحائها ، ولكن النفوس انزعجت خوفا مما تعودته فى الدنيا من الموت أو من نقص أو زوال هذا النعيم فقال سبحانه : (مقيم) فاطمأنت القلوب ، ولكنها لم تخل من شوب لأن هذا النعيم المقيم قد يقيمه زمنا وينقص أو تنقطع ، فقال الله تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا) فتم الحبور ، ولكن النفوس توهمت أن هذا الخلود يفيد طول الزمن فقط ثم انتهاءه فأكمل الله لها الحبور والمسرات بقوله (أَبَدًا) .

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذه الآية الشريفة متصلة بالبشرى منه سبحانه وتعالى ، وفيها الإشارة إلى الفوز بما هو فوق ذلك لأن البشرى أولا كانت من الرب جل جلاله بدليل قوله تعالى (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ) وهذه الآية خبر من الله تعالى مؤكد بأداة التوكيد بأن عنده لأفراد ممن ذكرهم بأنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى ذاته .

ما هو الأجر العظيم ؟

(أَجْرٌ عَظِيمٌ) والأجر العظيم الذى هو عند الله لابد وأن يكون فوق الرحمة والرضوان والجنات ، وما هو هذا الأجر ؟ هو النظر إلى وجهه جل جلاله فى مقام العندية ؛ لأن الذين آمنوا الإيمان الكامل وهاجروا من وجودهم الباطل إلى الوجود الحق بالحق وجاهدوا الجهاد الأكبر فى ذات الله مستغرقين فى شهودهم مشاهد التوحيد العلية ، حتى بلغوا مقاما فوق الشهود بعين اليقين تحققوا به أن الفاعل المختار هو الله ، وأن إيمانهم به من فضله ، وهجرتهم إليه بإحسانه وجهادهم به سبحانه تنزهت ذاته وتقدست أسماءه وصفاته ، هؤلاء لم يروا لأنفسهم عملا بل رأوا أن الفاعل هو الله ، فتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، وأحسن ما عملوا هو العمل بمشاهد التوحيد الذى هو الحقيقة فى نفس الأمر ، فقبل الله عملهم الذى عملوه سندا إلى ذاته جل جلاله ثم تفضل فأعطاهم أجرا على عمل عمله الله تعالى فكان هذا الأجر الذى منحهم على عمل عمله سبحانه ووهبة لهم هو الأجر العظيم الذى عند الله .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن العباس بن عبد المطلب وطلحة وبعض بنى عبد الدار سادن الكعبة وصاحب مفتاحها طلب منهم الدخول فى الإسلام فاعتذروا ، وقيل هم التسعة رجال الذين ارتدوا من المدينة إلى مكة كفارا ، وقيل سببها : أن رسول الله لما أمر المسلمين بالهجرة اعتذر رجال بأنهم يخافون على أموالهم وأهليهم وديارهم بمكة ، وبعضهم تعلق بأهله وأقاربه ، وهذه الآية متصلة بالآيات التى قبلها فى شأن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، وهذا يدل على أن الآية كانت قبل الفتح مع أن سورة براءة من آخر ما نزل من القرآن .

وتأويل الآية : أن الله تعالى ينادى أهل الإيمان ليلفت نظرهم إلى سماع الأحكام التى تلى النداء فنهاهم سبحانه بقوله : (لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ) والآباء والإخوان معلومون ، وقد فهم بعضهم أن إخوان تقال للقرابة من الوالدين ، وإخوة تقال لقرابة من غير الوالدين كإخوة الإيمان وخالف بعضهم هذا ، والحقيقة أن إخوان وإخوة سواء ويتميز كل منهما بالمرتبة الدالة على القرابة ، ودليل ذلك قوله تعالى : (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وقوله هنا : (إِخْوَانَكُمْ) برهان على أن (إِخْوَةٌ) تستعمل فى القرابة فى الدين وفى كل رابطة (وإخوان) كذلك.

(إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

والأولياء : جمع ولى (والولى) على وزن فعيل ، أما بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول أى: يتولونهم أو يقيمون أنفسهم لهم أتباعا (وأولياء) هنا بمعنى بطانة ، فنهاهم عن تولهم أن رجحوا الكفر على الإيمان بموالاة قرابتهم موالاة تشغلهم عن الله تعالى ورسوله (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) هذه الآية الشريفة شرط وفعله جواب ، والظالمون هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بعد الإيمان .

قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن الله لما أنزل سورة (براءة) شق الأمر على من لهم آباء وأبناء وأزواج وعشائر وأموال وتجارات ومساكن بين المشركين ، هذا لأن مكانة الآباء والأبناء بعد مكانة الله تعالى شرعا ، أما شرعا : فلقوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وأما عقلا : فلأن الآباء أصول للأبناء والفروع تحب الأصول وتقتدى بهم وتسارع بالقيام بالواجب عليهم لهم، وهذه خلة راسخة فى النفوس واقتلاع تلك الجبلات مما يصعب على النفوس، والعشائر لهم فى القلوب منزلة خاصة ، وللأموال التى تعادل النفوس ، وللتجارة وللمساكن الطيبة من تعلق القلب بها حب لا يجهله أحد ، فقالوا : إن براءتنا من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا يسيئنا جدا ، وبراءتنا من أموالنا التى اكتسبناها وتجارتنا التى عهدناها ومساكننا التى نأوى إليها فى تركها فقرنا وخراب بيوتنا ، وكان هذا كله ابتلاء من الله تعالى لا يطيب إلا لنفوس أهل الحق الذين وقع بهم العلم على عين اليقين فتمثلت قلوبهم حقائق الأمن والمغفرة والسلامة فى الدنيا والآخرة والنعيم المقيم يوم القيامة . قال الله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ)[1] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)[2] فالابتلاء من الله تعالى تقوم به الحجة للعبد ، وهو التمحيص الذى يظهر به أهل الايمان الكامل ، والآباء : جمع أب ، والمراد به هنا : الوالدان من رجل وامرأة ، فغلب الذكور على الإناث ، وكذلك الأبناء والإخوان هم أشقائك ويلتحق بهم أبناء أبيك وأبناء أمك ، وقد تقدم الكلام على الإخوان ، وهنا قدم الآباء على غيرهم لما لهم من الحقوق الشرعية المقدسة ، (والأزواج) جمع زوج وهى الزوجة وتعلق القلب بها معلوم ، وللمرأة بعد الآباء والأبناء والإخوان منزلة وإن كانت الواو لا تقتضى ترتيبا ومن قدمها على الآباء أو الأبناء أو الإخوان خالف صريح الشريعة (وَعَشِيرَتُكُمْ) وفى قراء (عشيراتكم) هم الذين يعاشرون المسلم بجوار أو فى عمل أو غير ذلك .

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

أى : وأموال اكتسبتموها (وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا) (والتجارة) هى أعمال المبادلة التى تقتضى المفاوضة وقد تستلزم المعارضة ، والرجال يرجون رواجها ويخشون كسادها فيتشعب القلب فى الهم بها (وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا) أى : بيوت تطيب فيها الإقامة (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى : تتعلق بها قلوبكم حب يشغلكم بها عن الهجرة (وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ) أى : فى إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ومحو الظلم والتظالم وعبادة غير الله .

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) أى : فانتظروا حتى يبرز الله قضائه الذى قدره أجلا من فتح مكة .

وهذه الآية تهديد ووعيد لمن أحب آبائه وأبنائه وأزواجه وعشيرته وأموالا اكتسبها وتجارة يخشى كسادها ومساكن يرضاها ففضلها عن الله تعالى وعن هجرة وجهاد فى سبيله .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

---

(1) محمد : 31 .
(2) آل عمران : 142 .

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يخبرنا أنه لا يهدى القوم الفاسقين هداية الإحسان ، وإن هداهم هداية البيان لتقوم الحجة ، والفاسق : هو الخارج عن الوسط ، وقد تقدم الكلام على الفسق ، وهو : الخروج من حصون الحق . يقال : (فسقت الحية) أى : خرجت من ثوبها ، وليس المراد بمنع الهداية مطلق الهداية ؛ لأن الله أقام لهؤلاء الحجة وضرب لهم الأمثال وبين الأحكام وهى هداية البيان ، ومن لم يهدى الله فليس له هاد، وهذا لا يدعو إلى ترك الدعوة بالحجة والبرهان حتى يتميز الخبيث من الطيب ، فالرسل عليهم السلام مكلفون بهداية البيان وهو واجب عليهم سواء أجاب القوم أم لا ، وكم قتل فى سبيل الدعوة إلى الله رسل كرام وأبدال علماء أعلام ولم يمنعهم شدة بأس الكفار عن الدعوة إلى الله وكل ذلك تنفيذ لإرادة الله تعالى .

قوله تعالى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25)).

اللام للقسم (وقد) للتحقيق والنصر وهو الظفر (فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) أى : فى مواقف للقتال توطنون فيها أنفسكم على القيام لله بما يحب مهما تجشمتم فى سبيل الله من العناء والمشاق ، وغزوات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثمانى عشر غزوة ، قاتل بنفسه فى ثمان منها ومجموع غزواته وبعوثه وسراياه سبعون أو ثمانون ، وفى كل موطن نصرهم الله تعالى ، وهى المراد بقوله فى مواطن كثيرة (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) أى : ونصركم يوم حنين وخصها سبحانه بالذكر لما أكرم الله فيها نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالآيات البينات من إعزاز دين الله تعالى وتأييد عباده المؤمنين وانتشار الدين .

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

هذه الآية الشريفة : شفاء لقلوب المؤمنين مما يلم بها من الأمراض المفسدة لجمال الإخلاص للواحد الأحد ، فإن النظر بارتياح إلى الأسباب المطمئنة للقلوب من غير رعاية الله جل جلاله الملك المطلق سبحانه تشوب مشاهد التوحيد وتظلل مقامات التنزيه والتفريد بظلال الركون إلى الأسباب ، وفى قوله : (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) يعنى : اذكروا حين رأيتم جيش المسلمين أضعاف جيش المشركين فحمل لكم العجب والسكون إلى العدد بعد أن قامت لكم الحجة لنصركم مع القلة على الكثرة عددا وعدة فى مواطن كثيرة ، والعجب يحبط الأعمال والآمال ؛ لأن الله ما أقام المؤمنين هذا المقام إلا ليشهدهم عيبه المكنون ويبين لهم من أبعدهم عنه وقطعهم، ومن اصطفاهم واجتباهم وقربهم ، فإن جيش المؤمنين هم المجتبون الذين أقامهم الله تعالى مقاما قامت لهم فيه الحجة أنه سبحانه يحبهم ويحبونه، وجيش المشركين هم الأشقياء المقطوعون المبعدون ولكنهم يجهلون ، فكان مقتضى هذا العلم اليقين الحق بأن الله ينصر من يشاء ويهدى من يشاء ويذل من يشاء ويعز من يشاء ويضل من يشاء ، فليس النصر لكثرة العدد والعدة ولا الخزلان لقلتهما ، ولا أدل على ذلك من غزوة بدر والخندق وذات الرقاع ، وكان جيش المسلمين فى واقعة حنين اثنى عشر ألفا على قول ، وستة عشرة ألفا على قول آخر ، وجيش المشركين أربعة آلاف فقط ، فقال أحد الصحابة : اليوم لا نغلب من قلة (فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا) لأن الغنى المغنى هو الله تعالى ، وكثرة الجيش والعروض لا تغن شيئاً ، ومن أعجبه شئ من هذا من غير رعاية الاعتماد على من وضع الأسباب فهو غافل .

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) ورحب أى : واسع ، فتكون المعنى ضاقت عليكم الأرض رغم اتساعها ، وذلك كناية عن تسرب اليأس من النصر مع كثرة جيش المسلمين وقلة جيش المشركين لتقوم الحجة على أن الفاعل المختار هو الله (ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) أى : وليتم وجوهكم مستدبرين ميدان القتال تاركين نبيكم (صلى الله عليه وسلم) مخالفين أمر ربكم بالجهاد والصبر ، فأدبكم على عجبكم بكثرتكم ، وإن لم يقل هذه الكلمة إلا رجل واحد لكنهم ارتضوها ، وفى رواية أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما سمعها غضب غضبا شديدا وقال: (لا تقولوا هذا واسألوا الله العافية) .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)) .

تأويل هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى يخبرنا أنه سبحانه بعد أن أدب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على قولهم : لن نغلب من قلة فقدر هزيمتهم أمام الأعداء ، وبعد ذلك أنزل السكينة عليهم ، والسكينة : هى طمأنينة القلب وسكون النفس إلى منفسها سبحانه .

قوله تعالى : (عَلَى رَسُولِهِ) ليشرح صدور المؤمنين فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان مستغرقا فى حقيقة التوكل على الله وتفويض الأمور جميعها إليه سبحانه ، وإنما قال فأنزل السكينة على رسوله ، ثم عطف المؤمنين عليه بقوله سبحانه وتعالى (وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أى : غشيتهم السكينة حتى رجعوا إلى الله إنابة وتوبة وتضرعا وابتهالا فكشف عنهم ما نزل بهم بعد هزيمتهم بسبب الكلمة التى قالها بعضهم .

قوله تعالى : (وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) وتلك الجنود هم الملائكة وما تلقيه فى روع المشركين مما ترتعد منه فرائسهم وتنسحق منه قلوبهم ، وما ألقاه جل جلاله فى روع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اليقين الحق الذى يكشف لهم جمال آيات الله تعالى ويوضح به غيوبه سبحانه وتعالى (وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) العذاب معلوم ، والذين كفروا : هم الذين لم يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، فشملت الآية أهل الشرك بالله والنصارى واليهود ، وإن تأولها بعضهم : أن المراد بها المشركون فقط .

وهنا لقائل أن يقول : الله تعالى قال : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) فكيف يخبرنا سبحانه وتعالى بقوله : (وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فالمراد به الانتقام من الأشخاص الذين يحاربون رسول الله وأصحابه خاصة ، والمراد من قوله : وما كان الله ليعذبهم هو استئصالهم عامة ولا يكون ذلك إلا يوم القيامة ، فصح الجمع بينهما (وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) والجزاء هو ما يكافئ العقوبة ، ولكن هذا العقاب فى الدنيا هو جزاء على محاربتهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا على كفرهم بالله تعالى ، فإن جزاء الكفر لا يكون إلا فى نار جهنم ؛ لأن الكفر ليس له عقوبة تكافئه فى الدنيا ، إذا فقوله تعالى : (وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) ليس هو الجزاء الذى يكافئ الذنب بل هو جزاء حرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكان جزاء فى الجملة وهو على قدر الذنب الذى عاقبهم الله به عليه .

قوله تعالى : (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى يخبرنا أن من بين أحوالهم فى الآيات السابقة أخفى عنا وعنهم سر قدره ، فإنه سبحانه وتعالى يأمر بما يحب ويردي ما يشاء ، فمن سبقت لهم منه الحسنى وفقهم سبحانه لما يحب ويرضى فهداهم هداية الإحسان للإيمان والقيام بما أمرهم الله تعالى به ، والمشركون مع ما أخبرنا الله تعالى عنهم به من كفرهم بالله تعالى ومحاربتهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتوب الله عليهم فيهديهم للإسلام ، وهو التواب الكريم يهدى من يشاء ويضل من يشاء ولا يسأل عما يفعل ، قوله تعالى : (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يخبرنا جل جلاله أن الله غفور ستار يستر كفر الكافر وذنوب المذنب فهو غفور لكافرين والعصاة ورحيم بالمؤمنين .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)) .

تأويل هذه الآية : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) أى المشركون محصرون فى النجاسة لا يتعدونها لغيرها إلا بالتطهير ، وتطهير الشرك الدخول فى الإسلام .

المقصود من نجاسة المشركين :

و (نجس) بفتح النون والجيم ، مصدر فعل نجس - بفتح الجيم وبكسرها - وهذه النجاسة هى النجاسة المعنوية لا العينية ، أى أن المشركين كالشياطين والخنازير ؛ وذلك لأن نفوسهم خبيثة لا تقبل الحق ، فهم وإن كانوا طوال القامة عراض الأظافر إلا أن نفوسهم أضل من نفوس الأنعام ، فكانت نجاساتهم بحسب عقيدتهم ومذاهبهم وآرائهم ، وهم شر من الوحوش الكاسرة ومن الشياطين ، ومادامت تلك القوى لا تقبل الإسلام فهى نجسة ، ومن فهم ما قررته جمع بين أقوال العلماء فى قوله : (نجس) ومنهم من قال : إن الكفر نجاسة ومن لمس كافر وجب عليه الوضوء ، ومنهم من قال : أجسامهم طاهرة والنجاسة حكمية ، ومنهم من قال : إنها نجسة نجاسة خفيفة ، ومنهم من قال : بغلظها والله تعالى يقول : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) وهذا حكم من الله بنجاسة المشركين نجاسة تجعلهم ألا يقربوا المسجد الحرام . والمراد من المسجد الحرام مكة والحرم، والحكم عليهم بمنعهم من قرب الحرم دليل على أن نجاستهم كناية عن أنهم ليسوا من بنى الإنسان بل هم أضل من الأنعام ، وأخبث من الشياطين ، وفى قوله : (فَلَا يَقْرَبُوا) إشارة إلى منعهم من دخوله ومنعهم من الاقتراب من المسجد الحرام ، بمقتضى منعهم من كل الأرض الحرام، حتى لو مرض مشرك فى تلك الأرض وجب إخراجه منها ، ولو مات لا يدفن فيها ولو دفن تخرج عظامه إلى خارجها ، وعلى قراءة الجمع فى قوله : (لا يقربوا المساجد) وعلى قراءة (الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) ينصب التحريم على الحرم فى مكة و (بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) أى : بعد العام الذى نزلت فيه الآية ، ولو أن رسولا للكفار جاء مكة ليكلم ولى الأمر وجب أن يرسل له من يكلمه من خارج الحرم أو يخرج ولى الأمر إليه إن اقتضت الضرورة ذلك .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية الشريفة : أن أهل مكة لما أخبرهم على كرم الله وجهه بسورة (براءة) فزعت قلوبهم وخافوا من الفقر بسبب انقطاع التجارات التى امتنعوا عن تبادلها مع المشركين فطمأن قلوبهم بقوله : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

تأويل الآية :

وتأويل الآية هنا : بمعنى (إذا) لأن الخوف حصل منهم ، (وعيلة) أى : فقرا ، فسوف يغنيكم الله من فضله قبل الموسم المقبل ، وقد أغناهم سبحانه بالجزية وبالأمطار الهائلة وبفتح جدة، ودام هذا الغنى يدوم دواما لا ينقطع (إِنْ شَاءَ) أى إن أراد الله ذلك .

وفى هذه الآية تأديب لنا وتعليم ، وهذا القوى القادر الحكيم يقول سبحانه : (إِنْ شَاءَ) فكيف بنا ونحن لا حول ولا قوة لنا إلا به سبحانه لا نقول إن شاء فى وعدنا ؟ !

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أى : أنه ينفذ ما شاء من جلال وجمال وعزة وقوة وقهر ، فما كان من جمال فبفضل منه سبحانه مقدرا أزلا للعبد قبل وجوده فى الكون ، ولا يعطه لاستقامته على الصراط المستقيم ولا لاستدامة أعمال البر والصلاح ، وما كان من جلال فهو بعدله سبحانه مقدر أزلا قبل وجود العبد ، ولم يكتب عليه بعد كفره أو نفاقه أو معصيته ، و (الحكيم) هو الذى يضع الأشياء فى مواضعها ولا يقدر مقدارا ما إلا بحكمة؛ لأن (حكيم) علمها من شاء بفضله وجهلها من قدر عليه الجهل بعدله .

قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)) .

بعد أن بين الأحكام المتعلقة بالمشركين أخذ فى بيان معاملة أهل الكتاب فأمرنا بقتال من اتصفوا بأربع صفات جمعها سبحانه بقوله : (لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) فكفرهم بالله هى : الصفة الأولى ، وباليوم الآخر : الثانية ، وعدم تحريمهم ما حرم الله : الثالثة ، ولا يدينون دين الحق : الرابعة ، فإذا توفرت تلك الصفات فى قوم لهم كتاب وجب علينا قتالهم ، وتفسير تلك الصفات معلوم (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى : من

اليهود والنصارى وفروعهما (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى : قاتلوهم حتى يذلوا لكم لتأخذوا منهم الجزية ، وأقل الجزية دينارا وأكثرها على الشخص أربعة دنانير يؤخذ من أهل الذهب ، وبقدرها من أهل الورق .

حكمة أخذ الجزية من أهل الكتاب :

والحكمة فى ذلك أنهم إذا أخذت منهم الجزية وعاشوا مع المسلمين شعروا بذل الكفر وبعز الإسلام وشهدوا ما عليه المسلمون من الحق فى العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق ، فقد تميل نفوسهم إلى الإسلام فيسعدون فى الدنيا والآخرة ، وهى الحكمة التى أرجأهم الله فلم يأمر بقتلهم.

(عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

والجزية هى الخراج ومن وجبت عليه الجزية يجب عليه أن يطعيها (عَنْ يَدٍ) أى : بسط كفه ، والجزية على كفه فيأتى بها أمين بيت المال حتى تكون يده فوق يد أهل الذمة ليعلموا أن للمسلمين المنة عليهم لأنهم أبقوا على حياتهم . والجزية شئ قليل جدا ، أما بالنسبة للحياة ليشربوا فى قلوبهم الذل .

وجائز أن تكون المعنى : أى : يعطوا الجزية عن يد ليد كما تقول كلمة من فم لفم ، والتأويل الأول أقرب لفهم الآية لأن أمين بيت المال ينقل الخراج من يد الذمى وهى مبسوطة ، والتأويل الثانى يقتضى تكون المعنى قهر للذمى على الدفع فورا (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى : وهم مجللون بالصغار خوفا على أنفسهم من الرق أو القتل .

قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)) .

لما أن أخبرنا الله تعالى أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالله بين لنا سبحانه ما هم مؤمنون به مما هو شر من شرك المشركين عبدة الأوثان والأصنام قائلا سبحانه : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

وسبب ذلك القول : أن بختنصر قتل أحبار اليهود وأحرق كتبهم وأفقد التوراة من أيديهم ومن صدورهم ، فتضرع عزير إلى الله تعالى فأكرمه بالتوراة حفظا ، وقيل : لما قتل الكنعانيين أحبار إسرائيل فعل ذلك عزير ، وقيل : لما خالفوا الله تعالى سلب منهم التوراة ، وجائز الجمع بين تلك الروايات بأنهم خالفوا الله ورسوله موسى عليه السلام فسلط الله عليهم بختنصر ثم الكنعانيين ، وألهم الله عزيرا حفظ التوراة ؛ فدعاهم إلى الحق بالتوراة التى ألهمه الله إياها فعجبوا كل العجب وقالوا : هذا لا يكون إلا لأنه ابن الله تعالى ، فكان ذلك كفرا شرا من كفر المجوس ؛ لأن المجوس وإن كانوا عبدوا الأصنام والأوثان إلا أنهم جعلوها لتقربهم إلى الله تعالى فكفروا لأنهم جعلوا لله شريكا يعبد ، أما اليهود والنصارى فإنهم أثبتوا النبوة لعزيز والمسيح والله تنزه وتعالى عن أن يكون له ولد ، وورد أنه جاء نفر من اليهود لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : إنك تنكر أن عزيزا بن الله ، فأنزل سبحانه هذه الآية ، ومن جعل لله ولدا قد أنكر الله تعالى وحجب حقيقته ؛ لأنه تقدس وتعالى من أن يكون له ولد ، والإله الحق فوق العقول والأرواح فكيف تصوره الأوهام والخيالات ، أو تحده أو تعده .

(وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ)

(النَّصَارَى) جمع نصرانى وتلك النسبة للمسيح لأنه ولد فى الناصرة ، وكان الأولى أن يقولوا ناصرين كما كانوا يقولون للمسيح ناصرى .

بولس يخدع النصارى :

وقد ورد أن رجلا من اليهود يسمى بولس كان عدوا للنصارى فجمع لهم الجموع وحاربهم ثم ندم على حربهم وقال : إن كان المسيح صادقا فنحن ندخل جهنم ثم أظهر ولاءه للنصارى وعقل جواده والتحق بهم وأقام فى الكنيسة سنة درس فيها الإنجيل ، ثم خرج للنصارى وقال : إن المسيح رضى عنى وتلمذ له ثلاثة رجال ، رجل يسمى : نسطور ، وآخر يسمى : يعقوب ، وثالث يسمى : ملكان ، وأفسد عليهم عقائدهم وجعل عيسى بن الله بنوة توالد ، حتى تمكنوا من تعاليمه

وبعد ذلك أمرهم بنشر إنجيله الذى وضعه ، وقال : إن المسيح رضى عنى ، وعلامة ذلك أنى أقتل نفسى غدا وأصبح ففعل ذلك ، فانقسمت النصرانية إلى نسطورية ويعقوبية وملكانية .

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

الإشارة عائدة على قول اليهود والنصارى و(قولهم) أى : خبرهم أن الله له ولدا (بأفواههم) أى بألسنتهم من غير حجة تسكن إليها النفس ويطمئن بها القلب (يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) (يُضَاهِئُونَ) أى : يشابهون ويتابعون (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) أى : حتى من قبل موسى ؛ فإن الفراعنة الأول كانوا يدعون أنهم أبناء الله ، وملوك الصين والهند كانوا يدعون أنهم أبناء السماء ، وإن كان المفسرون فسروا قوله تعالى : (الَّذِينَ كَفَرُوا) بمشركى قريش الذين كانوا يقولون عن العزى ومناة إنهم أبناء الله ، والآية لم تخصهم لأنه تعالى يقول : (قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وأكثر الناس قصارى النظر تراهم يرفعون ملوكهم وكبار أديانهم إلى مقام القداسة وهى سجية فى النوع الإنسانى ، ومن لم يقع العلم به على عين اليقين قل أن ينجو من الشرك الخفى .

(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

هذا خبر فى الظاهر ودعاء فى الحقيقة أى لعنهم الله وأبعدهم (يُؤْفَكُونَ) أى أنى يكذبون فينصرفون وينقلبون ، ولك أن تقول : إن العرب فى مثل هذه الأساليب يقولون مثل هذه الكلمة إشارة إلى أن هذا المقام لا ينبغى أن يقال فيه هذا القول .

قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)) .

اتصال الاية بما قبلها :

هذه الآية الشريفة مرتبطة بالآية التى قبلها (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى : أنهم سمعوا لهم وأطاعوهم فى تحريم الحلال وتحليل الحرام من دون رعاية أمر الله ، دخل عدى بن حاتم على رسول الله وفى عنقه صليب من ذهب فقال : اخلع هذا الصنم فخلعه ونحاه ، ودخل عليه مرة وهو يقرأ هذه الآية ، فقال :يا رسول الله نحن ما عبدناه ، فقال له : (صدقت ولكنهم كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله) فقال : هذا هو اتخاذهم أربابا من دون الله والأحبار جمع حبر بفتح الحاء أو بكسرها، و (الرهبان) جمع راهب وهم : العباد فى الصوامع ،وإنى لا أبعد بك فإنى رأيت وسمعت أن بعض العباد الذين يتزهدون ويتورعون تبلغ بهم درجتهم عند تلاميذهم أن يطيعوهم ولو فى مخالفة الله تعالى !

(وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)

هذه الجملة إما صفة أو استئنافية ، وتأويلها : أى اتخذوا المسيح بن مريم ربا من دون الله تعالى ، والعطف لا يقتضى المشاركة فى الاسم ولذلك كانت الجملة مستأنفة ؛ لأن المسيح عليه السلام أخبرنا الله عن قوله : (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا) [1].

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا)

(الواو) للحال والجملة حالية وهى تفيد الحصر أى : إن الله سبحانه وتعالى حصر أمره لهم فى عبادته فلم يأمر بعبادة غيره (إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا) و (العبادة) هى : التزلل والتخشع والتملق ، يقال : طريق معبد ، أى : طريق مزلل يسهل السلوك فيه ، و (الإله) هو ما ألله إليه الناس متحيرين متنسكين، وهو من يلجأ إليه العالم (واحدا) أى فى ذاته وأسمائه وصفاته تفيد الحصر، ومعناها حصر الألوهية فى ذاته جل جلاله التى هى هو ، فلا تعرف ولا توصف ولا تحوم حوالى عظمتها الأرواح الطاهرة ولا تشرف على قدس عزتها العقول الكاملة ، فهو هو كما هو جل جلاله .

---

(1) مريم : 31 :

(سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سُبْحَانَهُ) علما على التسبيح ، وتأويلها : تعالى الله وبعد عن النقائص التى يصفونه بها ، التى منها أن له ولدا أو شريكا أو صاحبا ، تنزه الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وتلك الآية الشريفة : جمعت كل من يصف الله بصفة لا تليق ، وذلك أن يعبد الرجل عبادة كثيرة معتقدا أن عبادته توجب على الله أن يعطيه الخير الذى يلائمه ، فإذا لم يعطه ذلك ساء ظنه بالله ، وسوء الظن بالله قطيعة وحرمان من مزيد الخير الروحانى ، ومن لم يقع به العلم على عين اليقين فى أسرار التوحيد أهلكته الفتن التى لابد منها بصفته عبد الله . أعاذنا الله من كل الفتن ما ظهر منها وما بطن .

قوله تعالى : (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)) .

هذه الآية خبر من الله تعالى عن خبث أحبار اليهود وأنهم كانوا يسارعون إلى ما يدعون به إلى الصد عن سبيل الله تعالى ، وقد أخبرنا الله عنهم فى الآيات السابقة بما أثبت خبث نفوسهم وسوء مقاصدهم ؛ لأن (يُرِيدُونَ) بمعنى يختارون فالإرادة هنا قبل الاختيار بدليل أنهم عملوا أعمالا عدائية للإسلام وأهله ، ولا يزالون ولن يزالوا إلى يومنا هذا ، ولولا أن الله تعالى ألقى بينهم وبين النصارى العداوة والبغضاء فشغلهم عنا بها لكانوا شرا علينا من الشيطان ، وما يزالون يكيدون للمسلمين فى أموالهم وبلدانهم يوقعون بينهم العداوة ، ولا أبعد بك فهذه فلسطين برهان قوى على عدواتهم لنا والله غالب على أمره .

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

تأويله : أن الأنوار إما حسية وإما معنوية .

الأنوار الحسية والأنوار المعنوية :

أما الأنوار الحسية : فمنها ما يطفؤ بالفم وما يطفؤ بالصناعة لأنها ناشئة عن النار .

أما الأنوار المعنوية : فإنها لا تطفؤ بالفم كما تطفؤ أنوار النار ، ولكن المراد من هذا أنهم يريدون أن يمحوا أنوار دعوة رسول الله بألسنتهم ، وذلك بالكذب على الله وعلى أنبيائه بمحو آيات البشائر برسول الله .

معجزات رسول الله فوق معجزات كل الرسل :

والذى يريدون إطفائه بأفواههم هو المعجزات الباهرات التى هى فوق معجزات كل الرسل ، فإن أجل معجزات عيسى هى إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) رد العين بعد أن فقئت بالحربة ، ورد الساق بعد أن قطعت بالسيف ، وشفى الله البرص بإشارة من يده (صلى الله عليه وسلم) ، وفلق موسى البحر بالعصى ، ورسول الله شق القمر بإشارة من أصبعه ، وكان الريح يحمل بساط سليمان فيسير به فى الجو ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسرى الله به من بيت أم هانئ إلى أن زج الله به فى نور القدس ، ونوح سارت سفينته على الماء ، ومشى الحجر على الماء لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما طلب منه ذلك عكرمة ابن أبى لهب وهو على غدير من ماء السيل بمكة ، وله (صلى الله عليه وسلم) معجزات غير ذلك لا تعد ولا تحصى ، فإن أمره كله غريب عجيب ، فكان لا يمضى عليه الصلاة والسلام يوم إلا وأظهر الله على يديه ولسانه من المعجزات الباهرات الكثيرة المتنوعة التى لا مثيل لها ، ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فأى فم يقوى أن يطفئ تلك الأنوار التى أظهرها الله تعالى بقدرته وحكمته.

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

ليس هذا المقام مقام غضب ولا كره ، ولكن التأويل : يريد الله تعالى أن يتم نوره ، بمعنى الإرادة وزيادة ، فتكون المعنى : يختار الله أن يتم نوره بقدرة باهرة وحكمة عالية (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) أى : إن سطوع هذا النور سيتم رغم أنوف أهل الكفر جميعا ، وهو جواب (لو) محذوف .

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)) .

بعد أن بين الله تعالى لنا نوايا أهل الكفر بالنسبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من صدهم عن الإسلام وإيقاعهم بالمسلمين وسعيهم فى إطفاء نور الله بأفواههم كما قدمنا ، أثبت الله تعالى مراده فى هذه الآية بقوله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) يعنى أن الله القادر الحكيم هو سبحانه الذى أرسل محمدا (صلى الله عليه وسلم) بالآيات البينات والمعجزات الباهرات وهى الهدى ، ولما كان الرسل صلوات الله وسلامة عليهم يؤيدهم الله تعالى بما به كمالهم فى الدعوة إلى الله تعالى فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى) أى : بالمعجزات وبالبينات ، والتأييد الثانى ينزل عليهم كتابا يسجد العقل لما حواه من العقيدة الحقة والعبادة الخالصة والمعاملة التى هى ميزان الأخلاق التى بها يعيش الإنسان أخا للإنسان وهذا معنى قوله تعالى : (وَدِينِ الْحَقِّ) والتأييد الثالث أن الله تعالى يمنحه كثرة الأصحاب والأتباع والنصرة على الأعداء، وينجز وعده سبحانه بقوة السلطان والغلبة على المخالفين ، وهو معنى قوله تعالى : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ومعنى ذلك أن الله تعالى يذل له الخلق أجمعين حتى يكون غير المسلمين أرقاء أو أهل ذمة يدفعون الجزية ، (وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أى ولو كره ظهور الإسلام على الدين كله أهل الشرك بالله تعالى ، وجواب (لو) محذوف وتقديره ليظهره على الدين كله .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)) .

هذه الآية الشريفة خبر منه تعالى عن علماء اليهود وهم الأحبار وعلماء النصارى وهم الرهبان ، وفيها بيان لطلاب الدنيا الذين يطلبونها بعمل الآخرة ومنهم الكثيرين فى زماننا هذا من المسلمين أدعياء العلم والقراءة كما أخبرنا سبحانه وتعالى عن كثرتهم فى أهل الكتاب .

الذين يلبسون مسوح العلم ليأكلوا أموال الناس :

وتأويلها : يا أيها الذين صدقوا الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) إن كثيرا من أحبار اليهود الذين يلبسون مسوح العلماء للناس وقلوبهم قلوب الشياطين فيأكلون الرشا بخدع الناس فيحلون لهم ما حرمه الله ويحرمون عليهم ما أحل الله ليسلبوا منهم أموالهم بالباطل ، وإنا لنرى فى زماننا هذا من أدعياء العلم والمتصوفة بالباطل تشبهوا فى أكل أموال الناس بالأحبار والرهبان ، ولما كان هذا الموضوع ليس له ميزان توزن به أحوال الرجال وخصوصا عند عامة الناس الذين لا بصيرة لهم تنكشف بها علامات الصادق من الكاذب ، لأنها أمور نفسانية لا يدركها كثير من الناس ، لذلك فإنك ترى أهل الحق يبغضهم الظلمة المتسلطون على الناس بالباطل ، وترى المشعبذين الذين لا علم لهم معظمين من رعاع الناس ، ومن لا دين لهم يعصمهم من ارتكاب المعاصى يتقربون من المتسلطين ولو كانوا كفارا ، ولما كان المراد من جمع المال أولا وبالذات هو الأكل ثم الضروريات فالكماليات ، وصفهم بأنهم يأكلون الأموال ، أى : يستحلونها لأنفسهم ، ومن لا يراقب الله تعالى ينسى يوم الحساب فيتوارى من الناس ولا يخشى الله جل جلاله ، وقوله تعالى : (بِالْبَاطِلِ) أى : بغير حق (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أى : ويمنعون الناس عن الإيمان بالنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه سبيل الله تعالى .

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)

(والكنز) وضع شئ من نوع واحد على بعضه ، ويراد به وضع الذهب على بعضه ، والفضة على بعضها ليكونا زخيرتين ، ولا يحرص على المال هذا الحرص إلا من اعتمد عليه و (الواو) هنا للعطف ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها ، وهى قوله تعالى : (إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) .

متى يكون جمع المال كنزا ومتى لا يكون :

وكم من الناس من يكنزون الذهب والفضة كما يكنزها الذين يأكلون أموال الناس من الأحبار والرهبان ، وليست كنزا شرعا إلا إذا منع زكاتها المفروضة عليها ، والآية وإن كانت خاصة بالأحبار والرهبان إلا أن قوله تعالى : (وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أدخلت بعض المسلمين فى حكمها ، لأن أموال غير المسلمين التى تجمع بالباطل تعد كنزا مطلقا ، وأموال

المسلمين قلت أو كثرت لا تكون كنزا إلا إذا منع إخراج الزكاة منها ، وكل مسلم أخرج زكاة ماله ولو كان المال تحت طبقات الأرض أو فوق وجهها فإنه ليس بكنز ، وإنما خص سبحانه الذهب والفضة والنقدية منهما لأنهما المعدنان اللذان لا يتأثران برطوبة الأرض أو بحرارتها ، أما غيرهما فيعتوره الفساد ، وقوله تعالى : (وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى : ولا يؤدون ما فرضه الله عليهم من زكاة أموالهم .

نصاب الزكاة :

ونصاب الزكاة من الذهب : عشرون دينارا ومن الفضة : مئتا درهما ، والزكاة من الأموال : ربع عشر المال ، وقد فصلت الزكاة المفروضة فى كتاب أصول الوصول ، وفى المال حقوق أخرى بينها الله تعالى فى كتابه العزيز ، وهى بر الوالدين وصلة الرحم وإكرام الضيف والجار والسائلين وإغاثة الملهوف ، وغير ذلك من نوافل البر .

كل هذه الوجوه فى سبيل الله (والسبيل) هو الطريق والشريعة والمنهج وكل ما يقرب إلى الله تعالى ويرضيه عن العبد .

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

(البشرى) هو الخبر الذى لم يسبق للمخاطب سماعه ، وهى مأخوذة من بشرة الوجه؛ لأن الإنسان إذا بشر بخبر يسره تغيرت بشرة وجهه ، وإذا بشر بخبر يضره تغيرت أيضا ، ولما قال الله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ) بعد بيان خبث نفوسهم ونزوعهم إلى الكفر عجب السامعون ، فلما قال سبحانه : (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ظهر أنه تعالى يتهكم بهم ويشنع عليهم ، والضمير عائد إلى الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

قوله تعالى : (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)) .

أى يوم تحمى صفائح الذهب والفضة والنقدية منهما حتى تصير نارا ويطرحون عليها فتكون غلافا لهم تحيط بهم (يوم) منصوب وهو من أيام الله تعالى الذى مقداره ألف سنة أو خمسون ألف سنة .

(فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)

المراد بالجباه مقدم الجسم كله لأن الجبهة أشرف أجزاء الجسد وهى كفاية عن مقدمته ، (وَجُنُوبُهُمْ) كفاية عن جميع جهات الجسم اليمنى واليسرى ، (وَظُهُورُهُمْ) جميع مؤخر الجسم ، ويكون المعنى : تكوى بها جميع أجسامهم ؛ لأنها اختصت بالمنفعة بهذا الكنز الذى كان يجب أن تخرج منه حقوق الله تعالى التى أوجب على العبد إخراجها ، وما أوجبه الله تعالى فى المال بينه سبحانه فى القرآن المجيد وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، واسم الإشارة فى قوله : (هَذَا مَا كَنَزْتُمْ) عائد إلى الذهب والفضة التى يحمى عليها فى نار جهنم ، وما كنزتم أى ما جمعتم وادخرتم لأنفسكم فى الدنيا مستأثرين به مخالفة لأمر الله ونسيانا لهذا اليوم ، فأوقعكم حرصكم على المال فيما لا طاقة لكم عليه من العذاب الأليم .

قوله تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)) .

هذه الآية الشريفة يخبرنا الله تعالى فيها بما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من مخالفة أحكام الله بأهوائهم ، فيخالفون أمر الله ويتبعون ما يلائم طباعهم الخبيثة ، وفيها بيان النوع الثالث مما خالفوا به أوامر الله تعالى بقوله تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ) التى قدرها أزلا فى سابق علمه وفى كتبه المنزلة على رسله وفى لوحه المحفوظ .

(اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

أى : يوم قدر خلق السموات والأرض مزينة بكواكبها وأفلاكها وأملاكها قدر أن تكون مسخرة لخليقته في الأرض وهو الإنسان ، فإنه سبحانه أبرز السموات والأرض ومن فيها وما فيها فى ستة أيام - كما تبين ذلك فى آية من كتابه العزيز - وهذه الأيام من أيام الله تعالى ، ومقدار اليوم منها (خمسون ألف سنة مما تعدون) فى ذلك اليوم قدر سبحانه أن تكون السنة اثنى عشر شهرا معينة بسير القمر .

الفرق بين الشهور الشمسية والشهور القمرية :

وقد سألني الأمير محمد على باشا مرة قائلا [1] : لم لا يكون للمسلمين سنة ينظمون فيها أمورهم الزراعية والصناعية كما فعل غيرهم من الأمم ؟ فأجبته : (بأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بعثهم الله تعالى لهداية العالم إلى ما به نيل الحسنين الدنيا والآخرة ، ولما كانت السعادة بالدين فوق السعادة بالدنيا ، وكانت الأنواع الحية كلها من نباتات وحيوانات قد ألهمها الله تعالى ما به تحصيل ضرورياتها وكمالياتها من غير تعليم ولا تمرين ، فنرى الطير يخرج من البيضة يلتقط غذاءه من الأرض ، ونرى البهائم يخرج الواحد منها من بطن أمه فيتناول ثدييها بفطرة الله تعالى ونرى الإنسان يهديه ربه جل جلاله إلى تحصيل ضرورياته وكمالياته فقد يحصل ضرورياته مشاركا لوالده فى عمله ، أو عاملا غير عمله تحدوه إلى ذلك الضرورة لأنها أم الاختراع ، ولكن هذا الإنسان لا يهتدى إلى سبيل السعادة العظمى إلا برسول يبعثه الله تعالى يبين لهم العقيدة الحقة والعبادة المقبولة والمعاملة التى يعيش بها الإنسان أخا للإنسان ، والأخلاق التى يبلغ بها مقام المقربين .

ولما كانت الأمم قبل الإسلام قد وضعوا لهم سنين شمسية رتبوا عليها أعمالهم الزراعية والتجارية والصناعية ، ولم يبق إلا أن يبين الله لهم شهورا وأوقاتا تعين لهم ظروف وقوع العبادات والقربات من صلوات وصيام وزكاة وحج ومن عدة النساء وغير ذلك ، فلما كانت الشهور الشمسية لا تناسب العبادات ، لأن أهل العناية بها قد تصيبهم مصيبة عامة تشغلهم عن تعيينها فيقدرونها تقديرا تخمينيا ، أما الشهور القمرية فإنه مهما تنوسيت فإن أوقاتها معلومة يمكن تعيينها تحقيقا بعد نسيانها ، فتكون الأحكام الشرعية واقعة لظروفها الزمنية فقد جعل الله لنا القمر لنعلم عدد السنين والحساب الشهرى ، وجعل الشمس لنعلم عدد السنين والحساب المتعلق بضروريات التجارات والزراعات والصناعات ، وبالقمر وتعينه يمكننا أن نعين الشهور الشمسية ، ومعلوم أن العناية بالأديان فوق العناية بالأبدان بالنسبة للزمان والمكان ، والعناية بالأبدان فوق العناية بالأديان بالنسبة لحفظ الصحة ورجوعها بعد فقدها ، إذن فالشهور القمرية خاصة بالأمور الدينية فحسب والناس أعلم بأمور دنياهم ، فإن الشريعة إنما جاءت لنجاة الناس من غضب الله ولنجاتهم من العذاب يوم القيامة ؛ فاستحسن الأمير هذا الجواب .

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

أى من الاثنى عشر شهرا ثلاثة متوالية وهي القعدة والحجة والمحرم وشهر فرد وهو رجب الأصم، وتلك الأشهر لها حرمتها من أيام الخليل عليه السلام فكان العربى فى الجاهلية إذا رأى قاتل أبيه أو أخيه فى شهر منها يعتبره كأبيه وأخيه احتراما لحرمة تلك الأشهر .

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

الإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى من أن عدة الشهور عنده إثنا عشر شهرا و (الدِّينُ) أى الذى يجب أن يدين به الناس ، (الْقَيِّمُ) أى الحق المستقيم، ولقائل أن يقول : لم خص الله تلك الشهور فى السنة بتلك الميزة ، والجواب أن الله سبحانه ميز من كل أنواع الحقائق أشياء ، منها أنه فضل الحرم على سائر الأرض ، وميز بيت المقدس ومسجد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، كذلك فضل الحجر الأسود على سائر الأحجار ، وفضل من الليالى والأيام ليلة القدر ويوم عرفة ويومى العيدين ، وفضل القلب على سائر الجوارح ، وفضل ليلة الجمعة وجعل فى يومها ساعة للاستجابة ، وهو الخلاق

([1]) الأمير محمد على هو أحد أفراد الأسرة المالكة قبل عام 1952 ، وكان وليا للعهد فى أيام ولاية الملك فاروق - وهو آخر ملوك هذا العهد - ، وكان هذا الأمير تربطه صلة صداقة بالإمام - رضى الله عنه - .

العظيم يخص من يشاء وما يشاء بما يشاء من فضله ، فكذلك فضل الأربعة الأشهر الحرم على سائر الشهور وهى سنة الله تعالى الماضية ، ولابد أن يكون لتلك الخصوصيات مزية خصها الله تعالى بتلك الأشياء، فوجب على عباد الله تعظيمها سواء من علمها ومن جهلها .

والذى يعلمه العامة فيها أن الله جعل لها حرمة علينا وأمرنا بتعظيمها ، ولو لم يكن من الفوز بالخير إلا أننا أطعنا أمر الله تعالى تعظيما لجلاله لكفانا شرفا ، لأن بتلك الطاعات يضاعف الله بها الثواب أضعافا مضاعفة . وقوله تعالى : (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والضمير جائز أنها اثنى عشر شهرا من تلك الأشهر أربعة حرم .

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)

أى : بمخالفة أمر الله تعالى ومعصية رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وظلم النفس يكون بارتكاب محارم الله تعالى سواء بترك الأمر أو عمل المعصية ، والشرك هو الظلم العظيم ، وهذه الآية تفيد أن المعصية فى الأشهر الحرم ليست كالمعصية فى غيرها ، بالنسبة للجزاء عقابا ، والطاعة فيها ليست كالطاعة فى غيرها بالنسبة للأجر ثوابا .

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

بعد أن بين الله تعالى أشهر السنة ، الحلال منها والحرام ، ونهانا عن أن نظلم أنفسنا بالقتال فى الأشهر الحرم ، أمرنا سبحانه أن نقاتل المشركين كافة ، أى جميعا بقلوب مستغرقة فى محاب الله ومراضيه صافية من الغل والحسد والطمع والحرص على الجاه وعلو الكلمة ، والله تعالى أمرنا بطاعته وإحياء سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مع الشوق الشديد إلى محبة لقاء الله بالشهادة أو استئصال المشركين جميعا حتى يكون الدين كله لله .

وجائز أن تكون المعنى : وقاتلوا المشركين كافة ، أى جميعا حيث كانوا وكيف كانوا فى أى زمان ومكان لا فرق بين الأشهر الحرم وغيرها ، ويتأكد ذلك إذا انتهك المشركون حرمة الأشهر الحرم ، فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حارب هوازن وثقيف فى شهر القعدة وهو شهر حرام لأنهم جاءوا كافة لقتاله (صلى الله عليه وسلم) فى هذا الشهر .

(كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

أمرنا سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة فى الأشهر الحرم وفى غيرها خصوصا إذا انتهك المشركون حرمتها كما فعلت هوازن وثقيف فى غزوة حنين ، وحرمة الأشهر الحرم إنما هى لتعظيم أوامر الله تعالى والمشركون لا حرمة لهم وقتالهم فرض عين استئصالا لأعداء الله وتعظيما لأوامر الله تعالى . (كَافَّةً) أى جميعا كقتالهم لكم جميعا حتى تنبؤوهم إلى الإسلام أو تستأصلوهم.

قوله تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)) .

(إِنَّمَا) اداة حصر ، والتقدير (النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) (والنسئ) يقصد بها نسأ ينسأ أى زاد ، ويقال نسأ الله فى عمرك ، أى زاد وبارك ، وجائز أن يكون لفظ النسئ على وزن فعيل بمعنى مفعول أى خارج ، وتكون المعنى : إنما حرموا شهورا لم يحرمها الله ، وجعلوا شهورا حلالا حرمها الله أى جعلها الله حراما ، ومخالفة حكم الله فى هذا زيادة فى الكفر .

(يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا)

تقدم معنى الضلال و (يضل) بفتح الياء وكسر الضاد ، بمعنى يضل بالنسئ الذين كفروا الناس (ويضل) بضم الياء وفتح الضاد بمعنى يضل بالنسئ الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، فينسأون الشهر الحرام أى يؤخرونه ويجعلونه حلالا ، وكانوا يحرمون صفر ويحجون فيه عامين ثم يحلونه ويحرمون ربيع ويحجون فيه عامين ، وكان آخر حجة حجوها فى شهر ذى القعدة حين حج أبو بكر رضى الله عنه ، وكانت حجة الوداع فى شهر ذى الحجة ، ولذلكم قال (صلى الله عليه وسلم) " إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض " .

(لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

يعني : الأشهر الحرم ، ومعنى (لِيُوَاطِئُوا) أى : ليوافقوا عدة ما حرم الله من الأربعة الأشهر فيحلون ما حرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام حسب أهواهم ، وهذا كله فى الجاهلية .

(فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

أى : فيحلون الأشهر الحرم التى حرمها الله على لسان خليله عليه السلام وحظر عليهم فيها الحرب والصيد .

(زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ)

أى : وتلك المخالفة لأمر الله تعالى زينها لهم الشيطان بما تأوله لهم مة جعل شهر محل شهر وتأخير الشهر الحرام إلى غيره وهو معنى النسئ ، وكونه زيادة فى الكفر لأنهم أضافوا إلى الكفر بالله الكفر بالنسئ و(سُوءُ أَعْمَالِهِمْ) أى قبيحها وهو تحريم ما أحل الله وإحلال ما حرم سبحانه .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

أى : لا يجمع لهم بين إصابة الحق وبين التوفيق للسمع والطاعة لانه قدر الكفر عليهم أزلا ، وهنا نفى الله عنهم هداية الإحسان وإن هداهم هداية البيان ، كما قال سبحانه لرسوله (صلى الله عليه وسلم) (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)) .

أى : يا أيها الذين صدقوا الله وسلموا لرسوله (صلى الله عليه وسلم) تسليما (ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله) فمقتضى الإيمان والتسليم المسارعة إلى السمع والطاعة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) (وانفروا) أى اجتمعوا وسارعوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله تعالى لأنكم بعتموها لله تعالى ، قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) [2] .

و (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) أى : تباطأتم شغلا بأرضكم وأعمالكم ومساكنكم .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا أراد غزوة ورى لغيرها لقرب المكان ووفرة الأسباب ، فلما أراد (صلى الله عليه وسلم) أن يغزوا الروم بعد قفوله من حنين ، وكانت قوة الروم ومنعتهم لا تخفيان على أحد ، والوقت كان حارا جدا والمسافة طويلة من صحارى قاحلة وأودية ووديان ، لذلك بين (صلى الله عليه وسلم) للصحابة قصده وأمرهم بالتأهب للجهاد فوجدوا فى انفسهم غضاضة لشدة القيظ وبعد المكان وعظيم المشقة فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

أى أسكنتم إلى نعيم تلك الدار ورغبتم فيما فيها من الملاذ والشهوات الملائمة لمن لا خلاق لهم ، وملاذها لا تخلو من المنغصات فإذا توفرت العوافى لا يتوافر الضرورى ، وإذا توفرت العوافى والضرورى لا يتوفر الأمن ، وإذا توفر الثلاثة لا تتوفر الراحة بسبب المنافسات والمنازعات ، وإذا توفر كل ذلك لا تتوفر المسرة بسبب الطمع فى الكماليات وتمنى دوام المسرات ، وإذا توفر كل ذلك فإن زوالها المحتم يكفى منغصا ، وكيف تتوفر مسرات من يعلم أنه يموت ويفارق هذا النعيم ويحاسب عليه أمام ربه ، فهو من تلك الناحية قليل متاعها الذى يمتع به الإنسان فيها ، ولما كانت كل تلك المسرات متوفرة فى الآخرة بمعنى أكمل مع بقائها أبديا كان أهل العقل يفرون من الدنيا إلى الآخرة لضآلة الأولى فى نظرهم وزوالها .

([2]) التوبة : 111.

قوله تعالى : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)).

هذه الآية الشريفة تهديد ووعيد من الله تعالى للمتثاقلين عن الجهاد (وإن) الشرطية مدغمة فى لا النافية و(تَنْفِرُوا) فعل الشرط أى تخرجوا إلى الجهاد مسارعين إلى القيام بأوامر الله تعالى (يُعَذِّبْكُمْ) جواب الشرط أى فى الدنيا بإمساك المطر والذل للأعداء ، وفى الآخرة بحرمانكم من النعيم المقيم وبالعذاب الأليم (عَذَابًا أَلِيمًا) أى : مؤلما فى الدنيا والآخرة كما تقدم ، (وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أى : يأتي بقوم آخرين يقومون لله تعالى بما يحب من الجهاد فى سبيله ومن العمل بكتابه تعالى وبسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وهم أهل اليمن وأهل فارس . وفى هذه الآية من الوعيد الشديد ما تذوب له قلوب أهل الإيمان ، (وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) أى : إنكم إذا تباطأتم عن المسارعة إلى الجهاد لا تضروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شيئا قليلا ولا كثيرا ؛ لأن الله وعده بالنصر وبالعصمة من الناس ، وهو سبحانه قادر على أن ينصره عليه الصلاة والسلام بالملائكة المقربين فيجعلهم له جنودا ، وجائز أن يكون الضمير عائدا إلى الله تعالى أى ولا تضروا الله شيئا لأنه على عظيم قادر حكيم ضار نافع ، قال سبحانه : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[1] ، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : والله تعالى على إيجاد الأشياء وإعدامها وإعلاء كلمته ونصرة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) قدير لا يعجزه شئ .

قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)) .

هذه الآية الشريفة ترغيب شديد للمؤمنين فى الجهاد وتهديد للذين اثاقلوا ؛ لأن (مَا لَكُمْ) فى الآية السابقة استفهام انكارى أشرب معنى المبالغة فى الانكار ، وهذه الآية ترغيب وتهديد ؛ لأن أداة الشرط المضغومة فى لا النافية جعلت (تَنْصُرُوهُ) كما بينا ، فعل الشرط وجواب الشرط محذوف تقديره ينصره ، وقوله تعالى : (فَقَدْ نَصَرَهُ) تفريع على الجواب أى ينصره كما نصره من قبل ، فإن جواب الشرط يلزم أن يكون مستقبلا (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى حين اضطره الذين كفروا إلى الهجرة – وقد تقدم حديث الهجرة – (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) أى أنه ثان لأبى بكر فتعينت ذاته (صلى الله عليه وسلم) .

صحة قول الله : (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) وخطأ قول النصارى : (ثالث ثلاثة) :

وقد بينا خطأ قول النصارى : ثالث ثلاثة ، لأنهم جعلوا الله نكرة حائرة بين عيسى والروح فثبت كفرهم ؛ لأن الله جل جلاله تنزهت ذاته ، ولو كانت كلمتهم إيمانا لقالوا ثالث اثنين حتى يتعين سبحانه ، ولكن (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) والاثنان اللذان يخبرنا الله عنهما هما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر متعينان كما تعين ذلك فى الزوجة والزوجة فيقال فلان زوج فلانه ، فإذا زاد العدد عن الاثنين وجب تعيينه ، فيقال : ثالث اثنين ، رابع ثلاثة ، وخامس أربعة كما تقدم فى موضعه ، وقوله : (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) أى حين كانا فى الغار .

سبب نزول هذه الآية :

وهذه الآية الشريفة سبب نزولها : أن أبا بكر رأى ظلال المشركين على فم الغار فبكى وصار يمسح دموعه بيديه ، فنظر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليه فعلم حاله وقال : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وكان الحسن البصرى إذ قرأ هذه الآية بكى كما كان يبكي أبو بكر ومسح دموعه بيديه ، وما سمعها مؤمن إلا وتمنى أن ينال قسطا من هذا المقام العلى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) أى : حين رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر يبكى عندما سمع أصوات المشركين ورأى ظلالهم ، فقال فى نفسه : (لو أن رجلا منهم القى بصره عند قدميه لرآنا) ، ولكن الله حصنهم بحصون منيعة فستر الغار بنسيج العنكبوت وبوجود حمامة برية على بيضها ، فلما رأى ذلك المشركون قالوا : هذا العنكبوت له سنين ولو مسه جسم لتمزق ولو أن إنسانا ورد هنا لنفرت الحمامة، وإلى الغار كان قد انتهى الأثر فأرجعهم الله مقهورين .

---

(1) يس : 82 .

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)

(السكينة) هى طمأنينة القلب طمأنينة تسكن بها النفس إلى منفسها ، ومعنى إنزالها عليه أى غشيته جميعه ؛ لأن الطمأنينة تكون للقلوب ، أى جمله الله بالسكينة ظاهرا وباطنا ، وفيها إشارة إلى شمول كل من اتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى أقواله وأعماله وأحواله .

(وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

وذلك فى غزوة بدر ، وكانوا إذ ذاك قلا بالنسبة للأعداء عزلا من السلاح الذى يناسب الجيش المقاتل ، فأيده الله بالملائكة ، وكان ينزلهم جل جلاله تأييدا للمؤمنين كما حصل فى حنين وغيرها .

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

فكلمة الذين كفروا هى الكفر بالله والغرور والأصنام والأوثان ، وهى السفلى حقا ولو ظهر أهلها فأن ظهورهم فى تلك الدار الدنيا ذل وخزى ، وكم ظهر الباطل على الحق أمام من لا يعقلون ولم يظهر أبدا على أهل الحق فى نظر أولى الألباب . قال تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) [3]ومن نظر إلى ما عليه أمم الإسلام من الضآلة أمام أهل الكفر من الفرنج وغيرهم قد يظن السوء ، والحقيقة أن أقل مؤمن بالله تعالى له العزة ، وليست العزة بوفرة المال وبنفوذ الكلمة وقهر الرجال ، إنما العزة بطمأنينة القلب وبالسكون إلى الله تعالى والتوكل عليه جل جلاله .

(وكلمة الله تعالى) :

هى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ووعده ووعيده وبشائره وإخباره عن الحال والمستقبل ، وهى العليا فى الحقيقة ونفس الأمر ، لأنها كلمة القاهر فوق عباده من بيده ملكوت كل شئ وإليه مرجع كل شئ ، وهى العليا ولا شئ فوقها ، يتحقق بذلك إذا نحن عقدنا قلوبنا على التصديق بها والعلم بمقتضاها فإن الله تعالى يرفع قدرنا ويشهدنا تسخير السموات والأرض وما فيها لنا .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أى : قوى قاهر عند تنفيذ ما قدره فيبرز قدره بعزة (وحكيم) أى : أنه يقدر الأقدار بحكمة عليه وقد تقدم تعريفها .

قوله تعالى : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)) .

(خِفَافًا) أى : فى حال شبابكم ويساركم وعافيتكم وفراغكم من الأعمال والأولاد (وَثِقَالًا) أى : شيبا وشيوخا وراجلين وفقراء ، فكلف سبحانه وتعالى المسلمين بالجهاد فى أى حال كانوا وفى أى زمان كانوا وفى أى سن كانوا ، إن ينفروا ، أى : يخرجوا إلى لقاء العدو وإن بعدت الشقة وطالت المشقة ؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استنفرهم لغزوة الروم فى حرارة الصيف مع ما بين المدينة وتبوك من الصحارى القاحلة والقفار والجبال ، فتثاقل الناس فأمرهم الله تعالى مستنفرا لهم فى حال الرخاء والشدة واليسر والعسر ، وقد بينت لك معنى (خفاف وثقال) .

(وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

هذه الآية تفصيل لما تقدم من الإجمال ، عينت المقصد من الاستنفار وهو القيام مسارعة إلى الجهاد فى سبيل الله ، (والجهاد) : هو تحمل الأمر الشاق تنفيذا لأوامر الله تعالى ، ولما كان المراد من الجهاد رفعة المجاهدين درجات عالية عند الله تعالى لا ينالها إلا من ضحى بالنفس والنفائس لأنه جل جلاله غنى عن أن يحتاج إلى نصرة دينه ونبيه بالخلق ، وقد بين الله حكمة الجهاد فى آيات أخرى .

(بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

([3]) النساء 141.

(الواو) وإن كانت لا تقتضى ترتيبا ولا تعيينا إلا أنه قدم المال على الأنفس ، لأن المال قوام طيب الحياة فقد يبذل الإنسان نفسيه دفاعا عن ماله وقد يتهاون فى صحته لتحصيله ، فكان عند العقول أعز من النفس فقدمه سبحانه على النفس من غير ملاحظة أن (الواو) تقتضى الترتيب كما قدمنا ، ومتى بذل المؤمن ماله ونفسه فى سبيل الله فإنه إما أن يفوز بالشهادة التى بها يمنحه الله حياة دائمة من يوم موته ويتفضل عليه برزق يتجدد فى كل يوم بقدر ما أثر فى الأرض بمحو الظلم والظلام وإظهار العدل والنور ، فيكون عمل العاملين بشرائع الإسلام رزقا من الله يتجدد لهم ولا ينقص ذلك من أجور العاملين شيئا ، وهذا معنى قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[1] . (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) الإشارة عائدة إلى أمره تعالى للمخاطبين ، وخير لكم خبر بالخير والنفع العميم الدائم الذى لا ضرر فيه ولا شر يليه (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : إن تصورت نفوسكم حكمة الجهاد وثوابه عند الله تعالى ، وجواب الشرط محذوف تقديره فهو خير لكم .

قوله تعالى : (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)).

بعد أن رغب الله تعالى المؤمنين فى الجهاد وتوعد المتثاقلين عنه بين أن المنافقين مع نفاقهم فإنهم من أهل الطمع فى عرض الدنيا الفانى بقوله : (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا) و (العرض) ما ينتفع به البر والفاجر (قَرِيبًا) أى : ميسورا لا عناء فى تحصيله (وَسَفَرًا قَاصِدًا) أى وكان المدعو إليه بحذف اسم كان الملحوظ (سفرا قاصدا) أى : وسطا وقوله : (لَاتَّبَعُوكَ) أى لأسرعوا فى اتباعك لا للسمع والطاعة ولكن للطمع والحرص (ولاتبعوك) جواب لو (وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) بضم العين والشين ، وفى قراءة بكسرها أى طالت مع ما كانوا فيه من حرارة الصيف وضيق ذات اليد ، وهذا الخطاب للمنافقين الذين استنفرهم رسول الله لغزوة تبوك فتباطأوا .

(وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ)

هذه الآية بيان لحال المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بعد رجوع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الغزوة لأنهم - قبحهم الله - ظنوا أن الشقة طويلة والجو حار والطريق وعرة والروم ليسوا كقبائل العرب فى الحرب فحكموا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يرجع من تلك الغزوة سالما ، فأقسموا بالله كذبا أنهم لا يستطيعون الخروج بعد هذا الظن السئ ، والآية خبر من الله صادق الوقوع وقد حققه سبحانه وإنهم هم الذين اعتذروا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أرجعه الله سالما غانما فعللوا تخلفهم بعدم الاستطاعة ، والحقيقة أن الله تعالى كره انبعاثهم لأنه سبحانه يعلم أن المنافقين إذا خرجوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أفسدوا الجيش وشغلوه بأفكارهم الدفينة ، (يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ) أى أنهم يهلكون أنفسهم بإيمانهم الغموس ؛ لأن اليمين الغموس يجعل الديار بلاقع - كما ورد - وبلاقع أى : سوداء محطمة كالمحترقة ، وقد قرروا أن يتلونوا بألوان النفاق أمام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجهلوا أن العليم الخبير لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والحال أن الله تعالى يعلم إنهم لكاذبون أكد الخبر عنهم بأداة التوكيد تقوية لخبر معه أنه من الله تعالى قوى جدا ، والآية تهديد ووعيد للمنافقين الذين كذبوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكفاهم تعسة توكيد الله تعالى الخبر بلام التوكيد ، أعاذنا الله وإخوتنا من عمى البصائر والعقول .

قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)) .

هذه الآية عتاب من الله تعالى فى أرقى مقامات التعظيم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن الله بعثه رحمة عامة للناس جميعا ، وهو عليه الصلاة والسلام حريص على إيمان الكافرين والمنافقين رحمة بهم ، ورغبة منه (صلى الله عليه وسلم) فى أن يهديهم الله تعالى ، والله علام الغيوب قدر عليهم النفاق ولم يقدر لهم الحسنى السابقة ، ولكن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أمر بمداراة الناس حتى ولو أطلعه الله على سر القدر المحتوم عليهم .

---

(1) آل عمران : 169 .

الآية تعظيم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

وهذه الآية الشريفة حجة على أفضليته على جميع الرسل ، وإن فهم منها من لا معرفة له بمكانة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن إذنه لهم ذنب بدليل قوله سبحانه : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) وكلمة (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) مستفيضة فى لغة العرب فيقولها العربى لأعظم أمير فيقول : (عفا الله عنك أعطنى عطائى) وهى كلمة تعظيم (لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) استفهام إنكارى فيه معنى ما قررته فى قوله : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) وهو عتب الحبيب على الحبيب إذا تكلف أن يرضيه فى عباده بدليل قوله تعالى : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) [4] فتكلفه (صلى الله عليه وسلم) إرضاء المنافقين مما لا يخلو من غضاضة وتكلف ، وكيف لا وهو (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى غزوة الروم ويجب ان يكون المسلمون كلهم رجلا واحدا فيجد من المنافقين ما يحزنه، ثم يتفضل فيأذن لهم بالتخلف بعد إيمانهم الغموس ، أشك فى أن الله أعلمه بنواياهم وهو سبحانه يقول : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) [5] ، و (المتوسمين) هم أهل الإيمان الكامل ، ويقول سبحانه : (يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) وهو (صلى الله عليه وسلم) مصدر كل تلك الأسرار والأنوار والمواهب ولكنه الحريص على الكافرين والمنافقين ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.

(حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا)

حقيقة هذا العتاب الإلهى :

يعتب الله تعالى على رسوله (صلى الله عليه وسلم) فى إذنه للمستأذنين أن يتخلفوا ، وهذا العتب عليه (صلى الله عليه وسلم) لأنه أذن لهم لامتحانهم واختبارهم والبحث عن نواياهم لتتضح أعذارهم إن كانت شرعا وان كانت هوى ، وليكشف للمسلمين عن سوء نواياهم ، ولا يكون هذا العتب لأنه (صلى الله عليه وسلم) أذن لهم من غير أن يؤمر من الله بالاذن لهم ؛ فإن الله تعالى جعل له المشيئة فى أن يأذن أو لا يأذن ، وتأويل الآية : أن الله تعالى أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بعد العتب عليه فى أمر المنافقين بالتخلف أن لا يأمر أحدا بالتخلف إلا بعد أن يبين عذره المقبول شرعا .

(وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) أى : حتى يظهر لك أهل الصدق بإقامة الحجة المقبولة على صدقهم وتعلم أهل النفاق الذين لا عذر لهم إلا كفرهم بالله ورسوله وبيوم القيامة من الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .

قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)) .

هذه الآية الشريفة : بيان من الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) انه لا يأذن لمن استأذنه فى التخلف عن الغزو إلا إذا أقام الحجة على صدق عذره، وأقام الحجة على صدقه ، ثم بين سبحانه خصال المؤمنين وصفاتهم التى جبلوا عليها الدالة على صدق إيمانهم ، فقال سبحانه : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) .

سر عدم استئذان المؤمنين :

تأويل هذه الآية : أن الذين يصدقون بالله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ويصدقون باليوم الآخر وبما وعد الله به أحبابه وتوعد أعداءه لا يستأذنون فى أن يتخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله ، وخصوصا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفى غزوة الروم البعيدة الشقة الكثيرة المشقة ؛ لأنهم -رضى الله عنهم - باعوا أموالهم وأنفسهم لله واشتراها سبحانه منهم وقبلها ، وما باعوا أنفسهم وأموالهم إلا بعد أن تحققوا بعلم اليقين صدق ما أخبرهم الله به حتى اضمحلت وتضاءلت فى أعينهم الدنيا وأغراضها والحياة وطيبها وما يلاءم النفوس من شهوتى البطن والفرج وشهوة النفس الأمارة بالسوء كما قال الشاعر : (ومن طلب البحر استقل السواقيا) أما أهل مقام الإيقان الكامل فانهم وجهوا وجوههم بكليتهم إلى الله تعالى فلم تشغلهم النعمة والرحمة والإحسان عن المنعم الرحيم المحسن سبحانه ، فأثبت ان هذه صفات المؤمنين فى مواقف الذود عن دين الله .

([4]) طه : 2 .
([5]) الحجر : 75 .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

أى : محيط علما بالخائفين من جلاله الراغبين فى جماله ، والخائفين من المعاصى المؤدية إلى عقوبته ، والراغبين فى طاعته المؤدية إلى نعيمه المقيم وقد تقدم الكلام على التقوى .

قوله تعالى : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45)) .

هذه الآية للحصر وقد حصر الله فيها صفات المنافقين فى مواقف الفزع الأكبر ، وتأويلها : لا يستأذنك فى التخلف عن الجهاد إلا الذين (لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أى : لا يصدقون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن لم يصدق بالله ولا باليوم الآخر لا يطمع فى ثواب ولا يخاف من عقاب ويكون ممن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ولا يدعوهم إلى التظاهر بالإسلام إلا خوف السيف فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، كما ظنوا فى غزوة تبوك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه إذا خرجوا إلى الروم لن يرجع منهم أحد ، ولذلك اعتذروا كذبا وأقسموا بالله باطلا تربصا منهم بالمؤمنين ، وإن الكفر بالآخرة هو الهاوية التى تلقى بالمنافقين فى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بما نسوا لقاء يومهم المحتوم مهما طال العمر .

(وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ)

أى شكت قلوبهم وتجبرت فى حقيقة توحيد الله تعالى وفيما وعد به أهل الإيمان من الجزاء الحسن .

(فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

أى : فهم فى ريبهم يتحيرون لا يعرفون أحقا هو أم باطل ، ولا يقع بهم العلم على يقين تسكن إليه نفوسهم ، ولولا خوف القتل لأعلنوا كفرهم وعداوتهم لأنهم ليسوا على بصيرة، وتلك الحالة من أخص صفات المنافقين الذين أخبرنا الله تعالى عنهم أنهم يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، فهم فى ظلمة الكفر يتقلبون وفى حيرة الإنكار لا يهتدون إلى سبيل الحق .

قوله تعالى : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46)) .

أى : ولو اختاروا الخروج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للجهاد لأقاموا الحجة على اختيارهم بإعداد العدة من الزاد والسلاح والماء والراحلة ، حتى أنهم كانوا لو اعتذروا بعد ذلك لقبل منهم العذر ولثبت أنهم كانوا صادقين فى اعتذارهم خصوصا وأنهم كانوا فى يسار ووسعة (كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ) أى : لم يرد الله سبحانه وتعالى لهم خيرا فى أزله (فَثَبَّطَهُمْ) أى : فردَّهم الله عن الجهاد فى سبيله وشغلهم عن الخير لما علم فيهم من النفاق ومن سوء نواياهم بالنسبة للمؤمنين ، ومن أنهم إذا خرجوا للجهاد معهم أفسدوهم وفتنوهم ؛ فثبطهم سبحانه لحكمة يعلمها ، وقد علمها الراسخون فى العلم (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) أى : اتركوا الجهاد واقعدوا مع المرضى والبؤساء والنساء والأطفال والشيوخ الذين لاقعدتهم الضرورة الفادحة ، وروى ابن جرير : أن الذين استأذنوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى القعود كانوا عبد الله بن أبى سلول والجد بن قيس ومن كانوا على مثل الذى كانا عليه

قوله تعالى : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)) .

هذه الآية بيان للحكمة التى ثبط الله المنافقين لأجلها ، وتأويلها : أن هؤلاء القوم (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) أى : فسادا والاستثناء هنا منقطع والمعنى : ما زادوكم حقا ولكن خبلا - بسكون الباء - وهو الفساد وبفتحها الجنون ، وتأويل قوله : (وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ) أى : دسوا خبثهم (خِلَالَكُمْ) أى : بينكم لأن الخلال هى الفرج بين الصفوف (يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) أى : يوقعون بينكم الفتنة كقولهم : إن جيوش الروم قوية وإن الشقة طويلة وإن الوقت حار ولا نأمن أن

يستأصلنا الروم أو نرجع منهزمين، وأمثال ذلك مما يعتقدون أنه يلقى الرعب فى قلوب الصحابة ولن يخرجوا إلا لالقاء الخوف فى قلوب المؤمنين .

(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)

أى : فيكم بطانة منهم يسمعون كلامهم فهم يرددونه ، وهم السنة الشر وأذانه ممن يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

أى : إنه سبحانه ذو علم بالظالمين الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها الذين يدخلون صفوف المؤمنين للفتنة والشقاق ، ولسماع أقوال المؤمنين وتبليغها للمنافقين والسعى للفساد بين المؤمنين ، ويعلم أهل الإيمان الكامل الذين يسرهم سرور المجاهدين ويحزنهم ما يسوءهم لا يخفى على الله خافية فى السماء والأرض وقد تقدم بيان معنى الظلم وصفات الظالمين .

قوله تعالى : (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49)) .

هذه الآية الشريفة : بيان من الله تعالى عن كيد المنافقين وخبث طباعهم ومسارعتهم فى خداع المسلمين ووقوع الشقاق والتفرقة بينهم ووقوع الشك فى قلوبهم وصدهم عن الإسلام وردهم إلى الكفر بالله تعالى بكل حيلة ؛ فقوله تعالى : (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ) أى : اطلبوا الفتنة طلبا و (الفتنة) هى إفساد القلوب وإثارة الشكوك والريب (وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ) أى : حرفوا أمورهم للإفساد والإضلال والتفرقة والشقاق ، واجتهدوا فيما يوقع المسلمين فى بغض دينهم وكراهة بعضهم وصد الجيش عن الجهاد ، كما حدث فى وقعة أحد عندما ارتد عبد الله بن أبى سلول ومن معه من المنافقين فى غزوة أحد وكان يبتغى بعمله هذا ذل المسلمين ومحو الإسلام (حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ) أى : جاء نصر الله وتأييده لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه رضى الله عنهم (وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ) أى : وانتصر دين الله (وَهُمْ كَارِهُونَ) (الواو) هنا للحال والجملة حالية والمعنى : ظهر دين الله رغم أنوفهم وشدة حرصهم على إطفاء نوره.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي)

سبب نزول هذه الآية :

نزلت هذه الآية فى الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس : يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر – يعنى الروم – (تتخذ منهم سرا وتأتينا بأخبارهم) فقال الجد : (يا رسول الله لقد عرف قومى أنى رجل مغرم بحب النساء وإنى أخشى ان رأيت بنات بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن فأذن لى فى القعود ولا تفتنى بهن وأعينك بمالى) فأعرض عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : (قد أذنت لك) فنزلت هذه الآية ، والسبب وإن كان خاصا فإن الحكم عام وليست خوف الفتنة بنساء بنى الأصفر هو الداعى إلى الاعتذار وإنما الداعى له بغضه للإيمان وخوفه على ماله وأولاده وخشية حرارة الجو وكفره بالله تعالى وبيوم الحساب وتكذيبه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)

أى : وقعوا فى شر الفتن ، وكيف لا وهم لم يقعوا فى معصية الله بل فى الكفر به ، فأى فتنة يخافون الوقوع فيها هى شر مما وقعوا فيه ، وكلنا نعلم أن الإيمان بالله تعالى وبرسوله (صلى الله عليه وسلم) إذا باشر نور سويداء القلوب هشت له وبشت واضمحلت فى جانبه ملذات الدنيا وحظوظها ، فكيف يخشى مسلم على نفسه الفتنة بالنساء وهو فى موقف نصرة الحق وتأييده متمثلا ما وعد الله به المجاهدين ، وعين مشغولة باستحضار ما أعده الله للعاملين بإخلاص له

جل جلاله كيف تشغلها شهوة أو حظ أو أمل فى الدنيا ، والمسلم يعتقد أن الجنة تحت ظلال السيوف وليس بينه وبينها الا كما ين رأسه وحد السيف ، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [1] .

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

خبر من الله تعالى عن مصير الكفار ومآلهم فى جهنم وهى دار العذاب الأليم ، والآية مؤكدة بان التوكيدية وبلام التوكيد ، و (محيطة) اسم فاعل يدل على الحال والاستقبال وجهنم محيطة دائما بالكافرين ؛ لأن العذاب إما واقع على النفس والجسم والحس ، أو على النفس والجسم ، أو على الجسم فقط، والمنافقون والكافرون - قاتلهم الله تعالى - فى جهنم بنفوسهم لبغضهم الإسلام ومحاربته ولتوقع البلايا بنصرته عليهم ، وكيف لا وما هم عليه من الدين لا يقبله العقل ويخافون بانتشار الإسلام أن يفقدوا السيادة والعلو فى الأرض بغير الحق .

قوله تعالى : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50))

.

هذه الآية الشريفة : بيان لخصال المنافقين التى جبلوا عليها كراهية لله تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) وقد كشف الله لنا فى هذه الآية أنواع المنافقين وألوانهم الكثيرة ، كما بينت ما انطوت عليه قلوبهم من الخبث والكيد ، كما أنها يقظة لقلوب المؤمنين حتى لا يركنوا إلى المنافقين ، وبيانا لذوى قرابتهم ليتحفظوا من شرورهم . وتأويل الآية : أن هؤلاء المنافقون الذين يخدعونكم من الغل الذى انطوت عليه قلوبهم فإنهم إن تصبك (يا محمد) حسنة أنت وأصحابك من نصر وتأييد وظهور على الأعداء وغنيمة ومن إقبال الخلق على دين الله الحق (تَسُؤْهُمْ) أى الجد بن قيس وعبد الله بن أبى بن سلول ونظراؤهما من المنافقين تمزق قلوبهم من الأسف، وذلك لأنهم يخافون نصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الروم فيقعون فى الخزى والهلاك فضلا عما يقطع قلوبهم من الحسد والهم على حرمانهم مما كانوا يطمعون فيه من الملك قبل إشراق أنوار الإسلام بينهم ، وأخوف ما كانوا يخافون على أنفسهم رجوع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غزوة الروم غانما منتصرا .

(وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ)

كما حصل فى أحد أو أن يحصل ما يتمنونه – عنادا لله تعالى ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) - من الهزيمة فى تبوك ، والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوصه؛ فإن ابن عباس رضى الله عنه قال : (الحسنة يوم بدر والسيئة يوم أحد) وإن كانت غزوة بدر أحد سببين لهذه الآية إلا أن اللفظ عام والسبب خاص ، والعبرة - كما تقدم - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيكون المعنى : إن تصبكم أى : حسنة تسؤهم وإن تصبك أى : مصيبة قالوا قد أخذنا أمرنا من قبل ، أى : احتطنا لأنفسنا بما انتحلناه من الأعذار فى التخلف ، وأقاموا الحجة على كفرهم وخبث طباعهم وسوء نواياهم ، ومعنى (أخذنا أمرنا) أى : تداركناه بالحيلة والتدبير حتى خدعناهم فصدقونا ووثقوا بنا وتخلفنا عن القتال ، وهذا فى غزوة تبوك لأن المنافقين اعتذروا وتخلفوا عن الجيش ، كما روى الطبرى بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر أصحابه بالتهيئة لغزو الروم ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب فى البلاد ، وحين تنضج الثمار وتعم الظلال فالناس يحبون المقام فى ظلالهم وثمارهم ويكرهون الشخوص عنها إلى أضدادها من الحر وطول السفر ومشقة القتال وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلما خرج فى غزوة كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الذى هو بصدده إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الحر وكثرة العدو الذى يتصد له ليتأهب الناس لذلك ، وأمر الناس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم ؛ فتجهز الناس على ما فى أنفسهم من الكره لذلك الأمر لما يعلموه من قوة الروم ومشقة قتالهم ، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جد فى سفره وأمر الناس بالجهاد وحض أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله ، فلما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبد الله ابن أبى بن سلول عسكره على ذى حدة أسفل منه بحدود باب جبل الجبانة أسفل من ثنية الوداع وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تخلف عنه عبد الله ابن أبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب ، وكان عبد الله بن

---

(1) محمد : 30 .

أبى آخر بنى عوف من بنى الخزرج ، وعبد الله بن بنتل آخر بنى عمر وبنى عوف ، ورفاعة بن يزيد ابن التابوت آخر بنى قينقاع وكانوا من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيدون للإسلام وأهله وفيهم أنزل الله هذه الآيات .

(مِنْ قَبْلُ) أى : من قبل أن تصيب محمدا (صلى الله عليه وسلم) وقومه مصيبة ، وقوم هذى خصالهم فهم شر على الإسلام وأهله من الشيطان الرجيم " وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ " أى يعرضون حال كونهم فرحين بما أصاب المؤمنين ، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) لأنهم شر من الكفار بل ومن الشيطان يظهرون الإيمان فنثق بهم فيفسدون ضعاف العقول وما يضرون إلا أنفسهم .

قوله تعالى : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)) .

هذه الآية الشريفة : حجة قائمة لأهل مشاهد التوحيد وقاصمة لظهور المنافقين والمرتابين والمترددين ، وتأويلها أن الله تعالى يأمر حبيبه محمد (صلى الله عليه وسلم) قائلا سبحانه : (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين يخادعونك بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر في قلوبهم : (لَنْ يُصِيبَنَا) من خير يحزنكم أو شر يفرحكم (إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) ، أى قدره أزلا فى علمه ، والآية تفيد الحصر فلا يصيب الإنسان من جميع أحداث هذا الكون شئ إلا وقد قدره الله فى سابق أذلا قبل أن يكون .

ما قدر على المؤمنين خير وما قدر على الكافرين شر :

وكل قضاء قدره الله تعالى على المؤمن فهو خير له ، فإذا قدر له نصرة وتأييدا فهو خير له فى الدنيا والآخرة بما يناله فى الدنيا من الغنيمة والنصرة والجاه والذكر الحسن فى الدنيا ، وإذا قدر له غير ذلك فهو خير له بما يناله من الشهادة فى الدنيا ، ومن النعيم فى الحياة البرزخية ومن الرضوان الأكبر يوم القيامة فى جوار الصديقين والنبيين والشهداء والصالحين ، وكل ما قدره الله تعالى على المنافقين والكافرين فهو شر لهم مهما توفرت لهم أسباب النعم والمشتهيات فإن قلوبهم مفعمة بالأحزان والخوف والنكد خصوصا كل ما رأوا نصرة الله وتأييده للمؤمنين وإمداده لهم بإقبال الخلق على الإسلام فهم فى هم دائم كما قال الله تعالى . (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) وهذا حالهم فى الدنيا وفى يوم القيامة فإن الله توعدهم بالدرك الأسفل من النار .

(هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

أى : هو ربنا ووليينا الذى يتولانا بولايته الخاصة فيخرجنا من الظلمات إلى النور (التوكل) تفويض العبد أموره إلى الله تعالى اعتمادا عليه جل جلاله بعد الرضى بما أقامه الله فيه وهو الحجة على كمال التوحيد ، ويكون توكلا على الله بمعناه الحقيقى إذا كان العبد متمكنا فى عقيدته باليقين الحق ، عاملا بالشريعة وعالما بأحكامها وحكمها قائما بفرضها وسننها ومندوبها تاركا ما حرمت وما كرهت عبادة ومعاملة وأخلاقا ، راضيا عن الله تعالى في اليسر والعسر ، آخذا بالأسباب قدر الاستطاعة ، تمسكا بسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتوكل على الله هو نهاية مقام السالكين وبداية مقام أهل اليقين .

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52))

(هَلْ) للاستفهام (تَرَبَّصُونَ بِنَا) أى : تنتظرون بنا (إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) أى : إلا واحدة من الحسنيين : الحسنى الأولى نصر الله لنا عليكم فنفوز بالسلامة والغنيمة والذكرى الحسنة فى الدنيا والعلو فى الأرض بالحق مع النعيم المقيم يوم القيامة، وأما قتلنا بأيديكم فنفور بحسنى الشهادة عند الله حياة طيبة يرزقنا الله تعالى فى حياتنا البرزخية أجر عبادات من هداهم الله على أيدينا بجهادنا ، حتى لا يمضي نفس فى تلك الدار الدنيا ونحن فى البرزخ ألا ويكتب فى صحائفنا أعمال صالحة على قدر نوايانا فى الجهاد ، ويوم القيامة نفوز بالرضوان الأكبر فى جوار ربنا جل جلاله ، وكلتا الحسنيين ثابتة لنا والحمد لله .

(وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ)

وهذه إحدى الخيبتين : الخيبة الأولي : أن يصيبكم الله بعذاب من عنده بأن يسرع الانتقام منكم فى الدنيا بمسخكم قردة وخنازير ، كما فعل بمن كذبوا الرسل وحاربوهم ، أو بخسف الأرض بكم كما فعل بمن سبقوكم ، وهذان قد حفظ الله العالم منهما تعظيما لحبيبه محمد (صلى الله عليه وسلم)، إلا أن الله تعالى يصيبكم بمصيبة الرق وضرب الجزية عليكم وهو عذاب لكم فى الدنيا ، أو يصيبكم بالسنين أو بآفات السماء والأرض وهو العذاب الذى من عند الله لأنكم لا تحسون له سببا (أَوْ بِأَيْدِينَا) أى : ينتقم الله منكم بأيدى المؤمنين فى القتال فيهلككم ، أو يصيبكم بالرق والجزية كما تقدم .

(فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

أى : فانتظروا ما تظنون وقوعه انا معكم منتظرون ما نحن على يقين من وقوعه ، فأنا على بينة من الفوز بالحسنى سواء نصرنا الله عليكم فمكننا منكم أو ابتلانا الله تعالى بالشهادة فى سبيله.

قوله تعالى : (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53)) .

أى : (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المنافقين وخصوصا للجد بن قيس الذى يقول لك : (ائذن لى ولا تفتنى) ويقول : (اقدم لك مالى) (أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) أى : أنفقوا أموالكم طائعين أو مكرهين (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) تأويل هذه الآية : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لن يقبل منهم الصدقة ، أو أن الله تعالى لن يقبلها بقبول حسن يثيبهم عليها ولو قبلها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والآية هنا وإن كانت أمرا ولكنها بمعنى الشرط فكثيرا ما يأتي الأمر بمعنى الشرط كما هنا ، وتقديره : إن تنفقوا طوعا أو كرها فلن يتقبل الله منكم بسبب (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) والفسق يحبط الأعمال ومن ضمنها أعمال القلوب ، ولكن الله تفضل فأزال ما علق بقلوب أهل الإيمان من شوائب الفسق ومن الحكم عليها بإحباط الأعمال .

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)) .

أثبتت تلك الآية الشريفة أن الفسق بمعناه ليس هو الذى أحبط عملهم ولكن الذى أحبط عملهم الكفر ، وكأن سائلا سأل بقلبه ما العمل ونحن غير معصومين من الفسق ، والفسق يحبط الأعمال فكيف يكون مآلنا ؟ فأجاب الله تعالى : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) ومعنى (فسق) أى خرج ، والفاسق قد يكون خارجا من الطاعة إلى المعصية التى لا تحبط أعمال القلوب ، فإذا خرج مما عقد قلبه عليه من حقيقة التوحيد حبط عمله القلبى لأنه كفر والكفر ذنب ليس بعده ذنب .

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

سر قوله : (وَلَا يَأْتُونَ) :

عبر بقوله : يأتون ولم يقل يقيمون فدائما توصف الصلاة بالإقامة لا بالإتيان لكن لأنهم منافقون قال سبحانه ولا يأتون ولا يأتى بالصلاة إتيانا إلا المنافق ؛ لأن إقامة الصلاة عمل من أعمال القلوب وقلوبهم خربة فيأتون بالصلاة خوفا على دمائهم وأموالهم ؛ لأن حكم تارك الصلاة عمدا القتل بعد الاستتابة ، فإتيانهم بالصلاة لدفع القتل عن أنفسهم ومن يعمل العمل خوفا من القتل يعمله مكرها جدا ، وهو عمل أهل الكفر بالله الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، وقوله : (إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) أى : متباطئين متثاقلين (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) ولا ينفقون من أموالهم إلا حقنا لدمائهم ومحافظة على حياتهم من القتل إذا هم لم ينفقوها على من أوجبها الله لهم (إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) أى : إلا على كره من إنفاقها وبغض لبذلها وهى خصال أهل النفاق ، وسبب الآية وإن كان خاصا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قوله تعالى : (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)) .

بعد أن توعد الله المنافقين بالخلود فى العذاب يوم القيامة فى الدرك الأسفل من النار ، يبين لنا فى هذه الآية عذابهم فى الدنيا بقوله : (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) مخاطبا هنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمراد به جميع المؤمنين ، ومعنى (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) أى : فلا تغبطهم على ما هم فيه من كثرة الأموال والأولاد ، فإن كثرة الأموال والأولاد وإن كانت من نعيم الدنيا ولذتها وبهجتها فإن الله تعالى أمدهم بما يرونه خير لهم وسعادة فى الحياة الدنيا ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد لهم غير ذلك ، فإن الإرادة نوعان :

1- إرادة كائنة : لا مفر من وجودها .

2- وإرادة محبوبة : يأمر بها الله تعالى ، والله لا يأمر إلا بما يحب ، وقد يريد ما يكره ، وهنا فى قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا) أى : إنما يقدر لهم كثرة الأموال والأولاد ليعذبهم بها ، وقد يريد ويأمر ، ولا يريد ويأمر كما أراد هداية أبى بكر الصديق وأمره بالإسلام وجمع له بين الإرادة والأمر اتحادا فأسلم وحسن إسلامه ، وأمر الكفار بالإسلام ولم يرده لهم فلم يسلموا .

إذا تقرر هذا فلا خلاف من أن الله تعالى يريد الإضلال ويأمر بالهداية فإن الإرادة عامة والأمر خاص فمتى أراد شيئا كان ، وقد يأمر بما لا يكون وكون الله تعالى أراد الكفر أو أراد العذاب فذلك لا يمنع من أنه حكم عدل لا يظلم أحدا ؛ لأن الظلم هو التصرف فى ما لا يملك ، والله تعالى يملك السموات والأرض وما فيهما ولا تحتمل التأويل بأى وجه من الوجوه .

(فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

عذاب المنافقين فى الدنيا :

تأويل هذه الآية ـ كما يقتضيه ظاهرها ـ أن عذاب المنافقين بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا أمر ظاهر جدا ، وذلك أن المنافقين مع كثرة أموالهم وأولادهم هم فى ألم شديد بسبب الأموال والأولاد ؛ فالشريعة أوجبت على المسلم أن يؤتى الزكاة وأن يجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، والمنافقون أخزاهم الله ـ ينكرون على رسول الله ذلك ويجحدون ربهم ويكرهون أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، فإذا اعتذروا عن القيام للجهاد ذلوا وهانوا وخافوا على أنفسهم وأموالهم أن تنكشف سريرتهم لأهل الإيمان ، فكانوا فى عذاب أليم كعذاب جهنم من الهم والغم ومن الخوف على أنفسهم وأموالهم إذا انكشف حالهم لرسول الله والله وللمؤمنين لأنهم لديها يحكم عليهم بالقتل واغتنام أموالهم ، فالهموم تتوالى عليهم بسبب الأموال والأولاد والمخاوف تعتورهم مما عقدوا قلوبهم عليه من الكفر مع التظاهر بالإسلام ولهذا تجدهم فى عذاب شديد ، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : (لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

(وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

أى تفيض من أشباحهم ، ومعنى أن الله تعالى قدر موتهم على الكفر وهو الحكم العدل ، وما يحتج به مخالفينا مرتب خوف الظلم من أن ينسب إلى الله تعالى ولكن من تصرف فيما يملك فما ظلم ، وملك الله لما خلق ملك مطلق ، وواجبنا التسليم له تسليما كليا ، وما علينا إلا أن نقول كما قال سلفنا الصالح : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) .

قوله تعالى : (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)) .

بعد أن توعدهم الله تعالى بأنه يعذبهم بأموالهم وأولادهم فى الدنيا والآخرة كشف الستر عن خفايا قلوبهم وخبث طباعهم وسوء نواياهم بالنسبة للمؤمنين بقوله : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) يحلفون بالأيمان المغلظة مؤكدين بأداة التوكيد بعد توكيد اليمين إنهم لمنكم، فأكدوا خبرهم بالقسم وبإن التوكيدية وبلام البعضية المتعلقة بكم من انهم منكم لا معكم فأثبت الله تعالى كذبهم بنفى الإيمان عنهم بقوله : (وَمَا هُمْ مِنْكُمْ) (والواو) هنا للحال ثم أثبت لنا حقيقتهم بقوله :

(وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) أى : يخافون القتل إذا أظهروا مكنون قلوبهم ، ولولا السيف ما أظهروا الإسلام فهم شر على المسلمين من الكفار المظاهرين بالكفر .

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ) أى : لو أنهم وجدوا ما يلجؤون إليه ليأمنوا على أنفسهم لأظهروا الكفر أو مغارات الجبال أو بطون الأودية أو (مُدَّخَلًا) على وزن مفتعلا (فاؤه) أبدلت (دالا) وأدغمت الدال فى الفاء فصارت مدخلا (المدخل) هو السرب الذى يكون تحت الماء كنفق اليربوع (لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) أى : لأسرعوا إليه إسراع الفرس الجامح الذى لا يرده اللجام.

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)) .

هذه الآية الشريفة : بيان لما انطوت عليه ضمائر المنافقين من الخبث ومن الكفر بالله وتكذيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا النوع بينه سبحانه بقوله : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا) أى : ومن المنافقين من يعيبك فى الصدقات ويسألك فيها سؤال تجريح لا يريد بالسؤال ولا بالتجريح وجه الله تعالى ولا دينا ، بدليل قوله تعالى : (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا) أى : فإن أعطيتهم عطاء وافرا فرحوا بك ورضوا عنك ، وهذا شأن من يرضى بغير الله تعالى يرضى لحظ أو شهوة أو علة خفية .

(وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) أى : وإن منعوا من العطاء أو أعطوا عطاء دون ما كانوا يطعمون فيه إذ هم يظهرون ما انطوت عليه قلوبهم من الوغر والغيظ ، وهذا فعل من حرم نيل محبوبه الذى يعبده من دون الله .

وسبب ذلك أن رجلا من الأنصار رأى رسول الله يقسم صدقة جاءت من ذهب وورق فقسمها حتى لم يبق منها شيئا ؛ فقال يا رسول الله : إن كان الله أمرك بالعدل فما عدلت فقال (صلى الله عليه وسلم) : (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل أنا) فقال عمر بن الخطاب : (يا رسول الله ائذن لى فاضرب عنقه) قال : (دعه فإن له أصحابا يحقر أحدهم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأنزل الله قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) .

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) .

أى : ولو أن المنافقين ؛ لأن الضمير كناية عنهم – وهم الذين شنع الله عليهم وهداهم وفضح سرائرهم – رضوا بما آتاهم الله تعالى تقديرا وآتاهم رسوله (صلى الله عليه وسلم) عطاء من الغنيمة ولو قل معتقدين أنه ما قدره الله تعالى ، وإذا رضوا به وحمدوا الله عليه زادهم الله من فضله فى الدنيا ، وأثابهم نعيما مقيما يوم القيامة (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) أى : كفانا الله بما قدره لنا (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) أى : سيؤتينا الله تعالى بحسن توكلنا عليه وفرحنا بما قدره لنا من فضله مزيدا متواليا ورسوله من البشائر والخيرات (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) أى : إنا بعد مفارقتنا تلك الدار الدنيا إلى ثواب الله ونعيد الآخرة راغبون .

تأويل أهل الشهود :

ولأهل الشهود فى هذه الآية فهم خاص ، وتأويلهم لها معناه : أننا للفوز برضوان الله تعالى والاستغراق فى كمال العبودية له سبحانه والفناء عما سواه ومن سواه لراغبون ، لأننا لا نؤمن بسواه جل جلاله ولا نطمع فى مال نصيبه ولا نعيم يزول ، فإن المشغول بالدنيا عن الآخرة منافق والمشغول بالآخرة عن الله تعالى تاجر يرغب فى المعاوضة والمبادلة ، وأهل الله تعالى فروا من الدنيا والآخرة إلى الله تعالى بعد أن كمل إيمانهم بقوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

الشروط الواردة فى الآية :

وقد بين سبحانه فى هذه الآية شروطا أربعة :

أولها : الرضا بما أتاهم الله ورسوله .

ثانيها :أن يقولوا حسبنا الله .

ثالثها : أنهم قالوا : وسيؤتينا الله من فضله ورسوله .

رابعها : إنا إلى الله راغبون . نسأل الله تعالى أن يتحقق فينا بكل محبة ورضى .

قوله تعالى : ((إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)) .

الزكاة برهان على صدق التوحيد :

الصدقة هى ما يتصدق به على الفقراء وقد سماها الله الزكاة ، والزكاة هى الطهرة التى تطهر القلوب من أدرانها ، وهي ركن من أركان الإسلام الخمس ، وهى العبادة المالية القلبية وحكمة فرضيتها أن القدرة محبوبة لكل إنسان ، ولا تتوفر القدرة على الفوز بكل الأغراض الضرورية والكمالية للإنسان إلا بالمال ، فبه طيب الحياة وهناءها بعد العافية ، ولذلك كان يعادل الحياة ، وقد يبذل المرء حياته محافظة على المال ، والنفوس بجبلتها شحيحة ببذله إلا فيما لابد للإنسان منه ، ولمن تجب عليه نفقتهم بعد نفسه ، ولما كانت النفس والمال مملوكين لله ولابد من حجة تقوم للعبد أن صادق في توحيده ، فرض الله تعالى علينا ان نخرج جزء من أربعين لمن أمرنا بالتصدق عليهم ، فمن سمع وأطاع قامت له الحجة أنه مؤمن صادق ، ومن عز عليه المال وكره الصدقة أقام الحجة على نفسه أنه منافق ، والمؤمن هو من يسارع إلى التصدق بما أمر الله ، ويعتقد فى مقام الإيمان أن الله يقبل الصدقة منه فيعوضه عنها سبعمائة ضعف فى الدنيا ونعيم الآخرة يوم القيامة يسارع إلى إخراج الزكاة عن طيب نفس وطمأنينة قلب وشكر لله تعالى على تفضله عليه بالغنى عن شرار الخلق وبتوفيقه إلى الصدقات ، وكل مسلم يمنع الصدقة قل ما له أو أكثر فهو كنز يكوى به يوم القيامة .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية الشريفة : أن المنافقين كانوا يلمزون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الصدقات كما أخبر سبحانه فى الآية السابقة ، وقد بين الله الأنواع التى تجب لها الصدقة ، فمن أدى فريضة الله آمن ، والفاقة : هى الداهية التى تكسر فقار الظهر و (الفقير) هو الذى يملك قوت يومه ولكنه متجمل بالعفاف لا يسأل الناس شيئا و (المسكين) مأخوذة من السكون إلى الأرض ، وهو الذى أقعدته الحاجة فأحوجته إلى أن يذل نفسه لسؤال الناس لسد رمقه ، و (المسكنة) هى : الذلة ، قال سبحانه : (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) [6] وقد يكون المسكين غير فقير وهم أهل الكتاب الذين أذلهم الله بالكفر ، وأما المسكين فى هذا الموضوع فهو ما قدمت لك تعريفه ، والصدقة إنما تعطى لا للمسكنة فإن أهل الكتاب لا تحل لهم الصدقة مع أنهم فى أدنى مراتب الذل ، والمسكين الذى تحل له الصدقة هو الفقير الذى أحوجه الفقر إلى التسول على قدر الضرورة ، فيبدأ المتصدق بإعطاء الفقير أولا حفظا لماء وجهه من أن تحوجه الضرورة إلى سؤال الناس ثم يعطى المسكين ، وإن كانت (الواو) لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا ؛ لأن معنى الفقير والمسكين شرعا يقتضيها ، والسائل المتبجح الأولى إعطاؤه من غير الزكاة المفروضة محافظة على إيتاء الزكاة لأهلها ، ولا يرد السائل مطلقا لئلا يكون محتاجا حقا .

ولما كان الواجب على القائم بالفريضة أن يكون على يقين من وضعها فى محلها كان الأولى أن يرد السائل الملح بغير مال الزكاة ، فإن كثيرا من أهل الاطماع يجعلون التسول حرفة فيسلبون أموال الناس بالباطل ، سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) رجلا يستول ليلا فيقول : (عشونى) فأمر مولاه سالما أن يعطيه عشاء ، وبعد فترة من الليل سمعه يصيح عشونى فنادى سالما وقال أمرتك أن تعشى الرجل فقال (عشيته يا أمير المؤمنين) فقال أحضره فأحضره فوجده يحمل كيسا من الخبز فعلاه بالدرة وأمر سالما أن يأخذ ما معه إلى بيت المال ، من هذا نعلم أن السائل لا

([6]) البقرة : 61 .

يحل له السؤال إلا لسد الضرورة ، فإن جعلها مسلم حرفة له ضرب وأخذ منه ما جمع وكلف بالعمل قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) [7] .

(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ)

العاملون عليها : هم الحاشد والحاسب والراعى والأمين ، فالحاشد الذى يحشد الأنعام ، والحاسب الذى يحسبها والراعى هو الذى يرعى أنعام الصدقات وكل هؤلاء لهم حق فى الصدقات يتقاضونه ، ولا تحل الصدقة لغنى ولا الذى أمره سوى ، أى : قادر على العمل والاكتساب ، ولا لهاشمى ، ولا لبنى المطلب ، وإذا دعت الضرورة هاشميا أو مطلبيا إلى طلب الصدقة فالواجب على المسلمين أن يقدموا لهم الهدايا التى تغنيهم عن السؤال ، واختلفوا فى تعيين عمالا للصدقة ممن تحرم عليهم ، ويكون ما يأخذونه أجرا لعملهم .

(وَفِي الرِّقَابِ) هنا مضاف محذوف تقديره وفى فك الرقاب أى عتقها من أثر الرق ، وهذه الآية تدل على رحمة الله بالأرقاء وحث مواليهم بالرحمة بهم والمسارعة على عتقهم .

(وَالْغَارِمِينَ)

هم : المدينين الذين أثقلتهم الديون وليس عندهم وفاء ، وهم قسمان : قسم استدان فى غير معصية ، وقسم استدان لعمل البر والمعروف ، وهذان القسمان يوفى دينهما من مال الصدقة ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة رجل عمل عليها أو رجل اشتراها بماله أو فى سبيل الله أو ابن السبيل أو رجل كان له جار تصدق عليه فأهداها له)

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أى : فى إعلاء شريعة الله ودينه وكلمته وذلك صادرا أولا وبالذات على الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله وإذلال الكافرين ، ويلتحق بذلك ما ينفق فى حفظ ثغور المسلمين وللنفقة على رد الطائفة الباغية ، وعمارة المساجد وتعيين الغلات لها وإقامة العلماء لتعليم الناس فيها وما يلتحق بذلك .

(وَابْنِ السَّبِيلِ)

أى : ابن الطريق لكثرة انتقاله من بلد إلى بلد ويراعى فى ذلك أن تكون أسفاره لغير معصية الله ، وان كان غنيا فإنه يجب له ما يلزم وقيل بشرط أن يكون فقيرا أو كان غنيا وأصيب فى ماله (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ) أى حق واجب من الله تعالى لتلك الأنواع الثمانية على من أوجب عليهم الزكاة من أصحاب الأموال (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى : عليم بصالح عباده وبما به إصلاح حالهم فى الدنيا والآخرة لا يعزب عن علمه شئ (حَكِيمٌ) أى : أنه سبحانه يأمر بما هو حكمة ومنفعة لخلقه فيضع الأحكام فى مواضعها ، وهو - تنزه وتعالى - خلق الخلق وضمن لهم ما به يفوزون بالسعاديتن إذا هم سمعوا وأطاعوا .

ولما كانت هذه الآية الشريفة صريحة فى أنها تضمنت أحكام الزكاة المفروضة ، فإن لفظ الزكاة والصدقة بمعنى واحد ، ولأنه تعالى قال فريضة من الله ، وعجبا للمسلمين يعطى الله الرجل أربعين دينارا من فضله فيعصى الله تعالى ويبخل بدينار واحد منها يعطيه للفقراء فيذهب الله البركة من بين يديه ، أسأل الله تعالى أن يجدد السنة ويعلى الكلمة ويتفضل علينا بالعزة التى بشرنا بها سبحانه فى قوله : (والله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

قوله تعالى : (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61)) .

هذه الآية الشريفة : بيان للون آخر من ألوان الخبث والشيطنة ونوع آخر من أنواع كيد المنافقين الذين كثرت ألوانهم وتعددت أنواعهم ، وقد قدمت لك ان الإيمان لون واحد وأن الكفر لون واحد ، أما النفاق أعاذنا الله منه فألوانه

---

[7] المنافقون : 8 .

كثيرة ، وتأويل الآية أن بعض المنافقين (يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ) وأذيتهم النبى (صلى الله عليه وسلم) بقولهم هذا الذى يشيعونه عنه بالباطل والبهتان ليصدوا الناس عن الإسلام .

وسبب نزول هذه الآية : أن جلاس بن سويدان ، ونفل بن الحرث ، ووديع بن قيس جلسوا مع فئة من المنافقين يذمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال قائل منهم لا تتكلموا فيسمع محمد كلامكم هذا فيؤاخذكم بما قلتم ، فقال جلاس بن سويدان نتكلم وننشر كلامنا فإذا لقينا محمد أقسمنا له أنا ما تكلمنا بهذا ، والرجل (أذن) يعنى أنه سليم السريرة لين سهل يتأثر بكل كلام يلقى إليه ، وليست له بصيرة نافذة ولا رؤية ناظرة إلى الحقائق ، وكان وديع بن قيس يذم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقام له غلام من الأنصار يسمى عامر ، فكذبه وسفهه وأسرع فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأحضرهم فأقسموا له بالله أنهم ما قالوا فصدقهم رسول الله ، فصار الغلام يقسم بالله وينفعل انفعالا شديدا حتى نزل القرآن .

ومعنى الآية - وإن كان سببها خاصا إلا أن لفظها عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - أن كل من يؤذى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أخلاقه أو فى آدابه أو فى أخباره فإنه داخل فى حكم هذه الآية (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) قرئت (أُذُن) بضم الهمزة والذال والتنوين ، وقرئت بسكون الذال بالاضافة ، والمعنى : قل يا محمد هو (أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) رعاية لإصلاح شأنكم وحرصا على ستر عوراتكم رغبة منه (صلى الله عليه وسلم) فى شفائكم من مرض النفاق (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) أى : يتخلق بأخلاق الله تعالى التى منها الصبر والحلم والستر فهو (صلى الله عليه وسلم) يحلم ويصبر ويستر عليكم لأنه حريص عليكم (وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) أى : يسمع للمؤمنين ويسلم لهم أمورهم على حالها لما لهم عند الله من المكانة ، وفى هذه الآية تهديد عظيم للمنافقين ووعيد من الله تعالى معناه أن رسوله أذن خير للمؤمنين فقط، وأما غير المؤمنين من المنافقين والكافرين فإنه يعلم ضمائرهم ونواياهم بما أعلمه الله ، ولكنه يؤمن بالله ، أى : يتخلق بأخلاق الله كما قدمت لك فيصبر ويحلم ويستر حرصا على شفائهم من مرض النفاق (وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) أى : يسلم بقلبه ولسانه للمؤمنين لعلمه بما طويت عليه ضمائرهم وما تصورته نفوسهم الطيبة الطاهرة من حقائق القرآن وأسراره وما عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومهما قالوا يؤمن لهم أى يسلم لهم ، وأما المنافقون والكافرون فان الله اعلمه (صلى الله عليه وسلم) بما فى نواياهم وجبله على مداراتهم حرصا عليهم ، وكيف لا والله تعالى قد كشف المنافقين لذوى البصيرة من المؤمنين ، فالمؤمنون من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) يعلمهم الله نوايا القوم من إقبال وإيمان أو إدبار ونفاق .

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

تقدم الكلام على معنى الرحمة فيما سبق ، ونزيد فى هذه الآية العطف والشفقة والواو للذين صدقوا الله ورسوله منكم أيها المؤمنون ، لأن المنافقين وإن نطقوا بالشهادتين وصلوا صلاتنا وصاموا معنا إلا أن قلوبهم مكذبة منكرة فليسوا من المؤمنين ، وفى هذه الآية فضيحة غليظة – وقد سمى البعض سورتها بالفاضحة الفارقة – لما كشفه الله فيها عن المنافقين وبين مخازيهم - قاتلهم الله جميعا على كثرة ألوانهم وأنواعهم - وقد سبق فى السورة التى تذكر فيها البقرة أنواع كثيرة من مخازى المنافقين .

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

والذين يؤذون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى كل زمان ومكان فى الدنيا والآخرة ، لهم عذاب أليم فى هذه الآية ، كقوله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) فإن العذاب الأليم ليس لهم وإنما عليهم ولكنه تعالى قال : (لَهُمْ) ليثبت أن هذا العذاب ملازم لهم أبديا حتى صار كأنه مملوك لهم أو أنه من الضرورى بالنسبة لهم .

قوله تعالى : (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)) .

هذه الآية الشريفة قصمت ظهور المنافقين الذين كانوا يقولون : إن محمدا (أذن) أى أنه لا بصيرة له يتدبر بها ما يسمع من كلام بل يسلم تسليما، فرد الله عليهم بما تقدم من البيان وهنا قصم الله ظهورهم بعد أن أقسموا بالله تأكيدا لخبرهم وإثباتا لصدقهم ليرضوا المؤمنين بالله ، وهذا من الخطاب الجامع الذى يراد به رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

، كما أن هناك من معانى الخطاب أن يكون الخطاب لواحد والمراد به الجماعة ، وهذا الخطاب من المعين للجمع والمراد به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه الآية كشفت للمؤمنين سريرة المنافقين كشفا واضحا تحققوا من افترائهم وكذبهم .

سر إفراد الضمير فى (يُرْضُوهُ) :

ولكن قوله تعالى : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) يجعل العقل عاجزا عن أن يبين معنى هذه الآية الشريفة ؛ فإن الله ورسوله ذكرا فى هذه الآية وعاد الضمير فيها على الفرد ، وكان الأولى أن يقول : يرضوهما فما هذا ؟ ، ذلك شئ فوق إدراك العقول وغاية ما يعبر عنه المعبرون ان هذا الضمير عائد إلى الله ؛ لأنه المعبود المقصود بالذات وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) إنما هو دال عليه ومبين للمناهج التى توصل إليه ، وليس المراد من رضاه إلا رضاء الله تعالى فهو (صلى الله عليه وسلم) الإنسان الذى أقامه الله مقامه ليكشف للناس محابه ومراضيه بقوله وعمله وحاله ؛ لأن العقول مهما فهمت والآذان مهما سمعت والأرواح وإن علت لا تستطيع أن تشرف على قدس العزة والجبروت ، وما بقى إلا أن تظهر لهم محاب الله ومراضيه عملا وقولا وحالا بواسطة إنسان مشاكل لهم تراه أعينهم وتسمعه آذانهم وتمسه أيديهم ويأكل مما يأكلون ويشرب ويلبس ويضحك ويعبس ويمرح وبذلك يكون مجملا بضروريات الإنسان وكمالياته عاملا بكل ذلك أمام العباد حتى يسارعوا لله بالاقتداء به والسمع والطاعة له معتقدين أنه يحب ذلك ويرضاه وبذلك يكونون قد أطاعوا الله وعبدوه حقا وفازوا برضوانه الأكبر ، اذن فما محمد إلا صورة تجليات للحق جل جلاله يظهر للخلق ما به يكون الخلق مجملين بالجمال الذى به يقبلهم الله ويقبل عليهم الله . (إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) هنا أداة الشرط وفعله وجواب الشرط محذوف لتقدمه ، أى : إن كانوا مؤمنين حقا فالله ورسوله أحق أن يرضوه .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)) .

هذا الاستفهام انكارى يدل على ان القوم تعلموا علما كثيرا فإما أنهم لم يفقهوه وإما أنهم فقهوه ولم تقبله قواهم العقلية ، أو أنهم فقهوه وأنكرته قواهم النزوعية إلى الجحود ، لأنهم لو علموا يقينا أو فقهوا حقيقة ما حادوا الله ورسوله .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية : أن بعض المنافقين اتفقوا أن يكيدوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقتلوه ليلا عند قفوله من تبوك ، وترقبوا له عند العقبة أثناء مروره منها فى ليلة مظلمة وهو راجع من تبوك فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بهم وكان يقود الناقة عمار بن ياسر ووراء الناقة حذيفة ابن اليمان فقال له (صلى الله عليه وسلم) : (يا حذيفة ها هنا اثنا عشر رجلا من المنافقين فامض إليهم واضرب وجوه رواحلهم) فأسرع حذيفة منفذا أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحولهم عن الطريق ، ثم رجع حذيفة فأخبر رسول الله الخبر فقال : (هل عرفت منهم أحدا) فقال : لا يا رسول الله فقال (صلى الله عليه وسلم) : (هم فلان وفلان إلخ أخبرنى بهم جبريل) ، والضمير فى هذه الآية للشأن لتهويل الأمر وتعظيمه لخطورة آثاره.

وقوله : (مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) جملة شرطية (وحاد) أى تجاوز الحد والمراد به هنا المخالفة والمحاربة أى أن من يحاب الله رسوله ويخالفهما محاربا لهما (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) (الفاء) هنا قد تكون رابطة للجواب ، وتكون (همزة إن) مكسورة وقد قرئت بالكسر ، أو تكون (الفاء) هنا للعطف أو الترتيب وتكون الهمزة مفتوحة ، وقد قرئت أيضا بالفتح ، وتكون المعنى : فنار جهنم له أو كانت نار جهنم له ، وتكون الجملة ابتدائية وجهنم اسم لطبقة من النار ، ويجوز أن تكون مأخوذة من قول العرب للبئر العميقة جدا (جهنام) فيكون المقصود الدرك الأسفل من النار ، وفى هذه الآية نفس معنى قوله تعالى : (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وكما ورد أصحاب النار وأصحاب الجنة الذين هم فى حكم المالك لها بسبب استقرارهم بها وخلودهم فيها، ومحادة الله تعالى : إنكار ما أنزله على محمد (صلى الله عليه وسلم) ومحادة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مخالفة سنته وهدية، مع محاولة أذيتهم له حال غيبتهم عنه (صلى الله عليه وسلم) .

(خَالِدًا فِيهَا) لفظة خالدا لا تدل على الأبدية وقد وردت فى الخبر عن أهل الجنة ، وقد تكون الأبدية بالنسبة لأهل النار لفئة خاصة ارتكبت ما يغضب الله غضبا شديدا .

وقد اعترض علىّ مستشرق وأنا بالسودان قائلا لى : إن الله تعالى حكم عدل ، وأطول الكفار عمرا لا يتجاوز المائة سنة إلا نادرا ، وأطول المؤمنين عمرا لا يتجاوزها إلا نادرا أيضا فكان من العدل أن يعذب الكفار بقدر أعمارهم فى الدنيا ثم يعدمهم رحمة بهم وأن ينعم المؤمنين بقدر أعمارهم فى الدنيا ثم يعدمهم رعاية للعدل ، فأجبته أن الكافر لو طال عمره أبديا لما ترك الكفر فهو يعاقب بمقتضى ذلك ، والمؤمن لو طال عمره أبديا لظل على إيمانه فأعطى له النعيم على هذا ، وفى الأول عدل وفى الثانى فضل ، وعلى هذا فخلود الكفار فى النار ولو أبديا هو عين العدل ، وخلود المؤمنين فى الجنة أبديا هو محض الفضل، لأن عقاب الفجار وثواب الأبرار ليس على أعمال كل منهما ولكن على نواياهما التى يعلمها الله تعالى .

(ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) الإشارة هنا تومى إلى ما توعد الله به أهل النفاق فى الآيات السابقة ، والجملة خبرية ، و (الْخِزْيُ) هو الذل والهوان الدائمين و(الْعَظِيمُ) البالغ النهاية فى حقيقته ، وذلك لأن المنافقين يضاعف لهم العذاب مضاعفة عجزت العبارة عن تصويرها ، لرؤيتهم أن أهل الجنة هم الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا ويسخرون منهم وينكرون عليهم هم الذين ارتقوا الدرجات العلى فمنهم من جلس على منابر من نور قدام عرش الرحمن ، ومنهم أهل الرضوان الأكبر ومنهم المقيمون فى رضوان الجنات ، ومنهم المواجه للوجه الكريم حيث المقام الأعلى ، كما أخبرنا (صلى الله عليه وسلم) عما تفضل الله به عليهم بقوله : (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) أما المنافقون فهم يرون أنفسهم أعاذنا الله وإخوتنا المؤمنين من شر ما حاق بهم فى الدرك الأسفل من النار ومع ما هم فيه من العذاب يشرفون على سعادة المؤمنين فى الدرجات العالية من الجنة فيكون عذاب الضمير أشد من عذاب الأجسام وهذا معنى قوله : (الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) .

قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64)) .

الحذر نوعان : الأول : أن يكون لتوقع خطر ، أو لدفع شر ، وهذا نوع واحد ، والثانى : أن يكون بعد وقوع الخطر ، والحذر فى النوع الأول هو : اليقظة والانتباه ، وفى النوع الثانى هو الخوف والتحرز من كشف مستور ، و (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) هنا أى : يخافون ، ومعنى الآية : يخاف المنافقون الذين أظهروا الإيمان للمؤمنين واخفوا الكفر من أن يعالجهم الله بعقوبته وعذابه فى الدنيا بكشف الستر عنهم ، وذلك بإنزال سورة تبين أسماءهم وأعمالهم فى السر والعلن حتى تنكشف حقائقهم للمؤمنين فيعاملونهم معاملة الأعداء .

وسبب نزول هذه الآية الشريفة : أن بعض المنافقين كانوا يذمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى السر خوفا وجبنا ، فعرفه الله بأسمائهم فى آية ذكر فيها سبعين رجلا نسخت كتابة وقراءة حيث جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى جمع من الناس فقال من قالوا الكلام الذى يغضب الله فيتوبوا ويستغفروا وأشفع لهم فلم يقم أحد ، فقال ليقم فلان وفلان وعدهم جميعا فوقفوا واستغفروا فقال عليه الصلاة والسلام (أما الآن فإنى لا أطيب ان اشفع لكم ولا أطمع ان يغفر الله لكم فأخرجوا عنى).

معنى الآية :

ومعنى الآية الشريفة : أن الله بين حال المنافقين فى صيغة الخبر بقوله : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) أى : يخاف المنافقون من إنزال أسمائهم وأعمالهم فى سورة تفضحهم وتجلب عليهم الخزى إلى يوم القيامة ، ويخشون من أن هذه السورة (تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ) أى : تكشف الستار الذى أسدلوه على قلوبهم وعند بعدهم عن المؤمنين وخلوتهم بأنفسهم يتكلمون بما لا يرضى من القول ، وسبب قوله (تُنَبِّئُهُمْ) ولم يقل تنبئ المؤمنين ؛ لأن كثيرا من المؤمنين كانوا يعلمون نفاقهم من لحن القول ، ولكن المنافقين كانوا يظنون أن المؤمنين لا يعلمون نفاقهم ولم يبق من النكاية إلا أن الله ورسوله والمؤمنين يعلمون .

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

معنى هذه الآية : قل اسخروا بالله ورسوله والمؤمنين جهلا منكم أن الله تعالى ورسوله والمؤمنين لا يعلمون ما تخفون عنهم ، ولم يذكر الفاء الرابطة لجواب الأمر ؛ لأن الفاء إذا ذكرت عينت ما اخبر الله ، وإذا لم تذكر فلا تعين وهنا أظهر الله بعض ما أخفوا وستر غيره ، فأظهر ما قد يضر المؤمنين وستر الجحود والكفر الذى توعدهم عليه بالعذاب يوم القيامة ، ولذلك قال : إن الله مخرج ما كنتم تحذرون أى : ما تخفونه فى أنفسكم .

قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65)) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : أن بعض المنافقين وكانوا فى الجيش وقالوا : ما رأينا أجبن قلبا ولا أكذب عبارة ولا أخوف نفسا عند الحرب إلا هذا الرجل ، ويقصدون محمدا (صلى الله عليه وسلم) فسمعهم رجل من الصحابة ، فسبهم وقبحهم ، ثم ذهب إلى رسول الله فأخبره بأمرهم ، فلما أحضرهم (صلى الله عليه وسلم) وسألهم ، قالوا (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) و (الخوض) هو المشى فى الخضخاض (وهو الطين المائع) وقولهم (خوض) أى : نرتكب ما يقذر وينجس لا عنادا وانتقادا ولكن تسلية (واللعب) معلوم ، فأنزل الله على رسوله قوله تعالى : (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (والهمزة) هنا للاستفهام الانكارى وابتدأ بقوله (بالله) لأن الإنكار ليس على الخوض واللعب وإنما الإنكار أن يكون الخوض واللعب استهزاء بالله ورسوله وآياته ، أما الخوض واللعب والاستهزاء فى غير ذلك فليس بمنكر ، ولو كان منكرا لقال أتخوضون وتهزأون بالله ورسوله ، فيكون الإنكار على الخوض واللعب استهزاء وسخرية ، فإن الإنسان لا يسلم من الرياضة والمداعبة والفكاهة ، وليست محرمة شرعا ، ولكن الحرام أن تكون بالله ورسوله وآياته ولذلك قال تعالى : (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) .

قوله تعالى : (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)) .

هذه الآية الشريفة : وعد من الله تعالى وتهديد للمنافقين بعد أن قامت الحجة القاصمة للظهور عليهم ، و (الاعتذار) هو المحو أو القطع ، فيقال : اعتذر عن الذنب أى : محاه ، أو قطع العقوبة عليه ، كما يقال اعتذرت المدينة أو الدار أى انمحت واندسرت ، والاعتذار محو للذنب وقطع للعقوبة إذا قبل ، ولما كان اعتذارهم بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون عذرا غير مقبول ؛ لأن الخوض واللعب لا يكونان بالله ورسوله وآياته ، ولكنه قد يجوز فى شؤون أخرى ، ولهذا قال تعالى : (لَا تَعْتَذِرُوا) نهيا لهم عن الاعتذار ؛ لأن اعتذارهم غير مقبول من الله العليم بالسرائر المطلع على الضمائر (قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) هذه الآية خبر من الله عن المنافقين أنهم كفروا بعد إيمانهم ، فجائز أن يكونوا آمنوا إيمانا حقا ثم كفروا ونافقوا ، وجائز أن يكون الخطاب على حسب ما ظهروا به أمام المؤمنين لأنهم أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان فخاطبهم الله على مقتضى حالهم الظاهر.

وعلى التأويل الأول : يكونون أظهروا الكفر باحتراز شديد بعد الإيمان الحق ، وعلى التأويل الثانى : يكونون أظهروا ما أخفوه فى نفوسهم فكفروا سرا وجهرا .

المراد بالطائفة :

(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً) (الطائفة) لغة : أقلها الواحد وسميت طائفة لأنها تطوف حوالى مقصدها . والمراد هنا بقوله : (إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ) أى : عن واحد فقط وهو محيش ابن ثابت لأنه استنكر أعمال المنافقين وقال : والله إن فى كتاب الله لآية كلما تذكرتها تمنيت أن أكون عدما وإنى أسأل الله أن يميتنى شهيدا حتى لا يقول أحد غسلته أو كفنته أو صببت الماء عليه ، فأجاب الله دعاءه ومات شهيدا حتى لا يقول أحد غسلته أو كفنته أو صببت الماء عليه ، فأجاب الله دعاءه ومات شهيدا يوم اليمامة ولم يجده أحد وكأنه رفعته الملائكة إجابة لدعوته ، ومحيش هذا هو الطائفة التى عفا الله عنها ، قلت لك إنه رجل واحد وملاحظ معه كل من وقع فى هذا حتى يكون الباب مفتوحا لكل طالب لله تعالى ، (و إِنْ) هنا للشرط و (نَعْفُ) فعل الشرط و (عَنْ طَائِفَةٍ) تتعلق بالبعض و (نُعَذِّبْ) جواب الشرط ، والمراد بالطائفة الأخرى

: وديع بن ثابت ونهيب بن الحارث اللذان حادا الله ورسوله ، والمراد من العذاب فى الدنيا بكشف الستر عنهم وفضيحتهم ، وفى الآخرة الخلود فى نار جهنم .

(بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

هذه الآية : بيان لعدله تعالى وبأنه سبحانه لا يظلم أحدا ، وقد حكم عليهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة ، لأنه سبق فى علمه الأزلى أنهم مجرمون (والمجرم) من ارتكب معاصى الله تعالى عنادا ونزوعا إلى الشر وحسدا للمؤمنين.

قوله تعالى : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67)) .

بعد أن بين الله أن الذكور من المنافقين بلغوا نهاية الخزى والضعة والخبث ، بين لنا فى هذه الآية أن الإناث منهم متحدون بهم فى خبث النية وسوء الطوية وقبيح السريرة (بعضهم من بعض) أى متحدون همة ولمة وإردة وعزما ونية وعملا وقولا حتى كأنهم جميعا رجل واحد فى الخبث واللؤم محاربة لله ورسوله والمؤمنين كما تقول : أنا من فلان وفلان منى ، أى : على مبدئى ورأى ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (أنا من حسين وحسين منى) وقد بين الله تعالى شأن المنافقين بقوله تعالى : (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) و (المنكر) هو : كل قبيح ، وأقبحه الأمر بالكفر وتكذيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) و (المعروف) هو : كل خير ، وأفضله الإيمان بالله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يأمرون بالكفر وينهون عن الإيمان .

قبض اليد عند المنافقين وعند المقربين :

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) هذه الآية تهديد وتشنيع عليهم وذم فاضح لهم ، ولا يكون هذا كله إلا على ترك الواجب لا على ترك نوافل البر ، فمعنى (يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) أى : يمنعون الزكاة المفروضة والنفقة على الغزاة والمجاهدين وعلى البر والصلة ، ولما كان الإنسان إذا اعطى عطية بسط يده بها عبر عن منع الخير بالقبض ، وفى هذه الآية معان كثيرة بينا بعضها ، وقبض اليد قد يكون فى شئ من نوافل البر ، ولكن لما فى الآية من ذم الله للمنافقين ، رأينا ألا يكون ذلك إلا فى منع الواجب ، لأن منع غير الواجب لا ذم فيه ، إلا عند أهل الله المقربين منه الذين لا يرون صغيرة فى المعاصى ولا كبيرة فى الطاعات ، فإن أصغر هفوة تقع من المؤمن لو تصور من يواجه بها لذاب قلبه من هولها وإن أعظم طاعة لو تصور عظمة من يقبلها منه لاحتقرها وتاب منها .

(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)

هذه الآية الشريفة : لابد فيها من التأويل ؛ لأن النسيان لا يؤاخذ عليه المرء بدليل قوله (صلى الله عليه وسلم) (غفر لأمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) فكان النسيان لا يؤاخذ عليه المكلف ، كما أن الله تنزه وتعالى عن أن ينسى قال سبحانه : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) [8]إذن فلنا أن نؤول النسيان هنا بالترك – أى تركوا القيام بأوامر الله تعالى – فترك الله العناية بهم ورحمتهم والمغفرة لهم ، وقد ورد فى القرآن الشريف أمثال هذه الآية قال سبحانه : (الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) [9] ، وقال تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) [10] ، والواجب أن نؤول هذه الآيات بما بيناه لك .

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

يخبرنا الله تعالى فى هذه الآية بالحكم على المنافقين وأتى حكمه مؤكدا بأداة التوكيد وبضمير الحصر وبإسمية الجملة ، فالآية تفيد الحصر ، والمراد به الفسق الذى هو الكفر الصريح ، فإن كثيرا من أنواع الفسق لا تخرج المرء عن الإيمان ، حتى الكبائر على مذهبنا فإن مرتكب الكبيرة لا نحكم عليه بالكفر ، وان قال بذلك بعضهم فأمرهم مفوض إلى الله

([8]) مريم : 64 .
([9]) الجاثية : 34.
([10]) الحشر : 19.

تعالى ، و (الفسق) هو : الخروج ، يقال : فسقت الحية ، أى : خرجت من ثوبها ، فمن كان مؤمنا وفارق نوعا من الإيمان أو ترك العمل بأحد فروعه سمى فاسقا ، ولكن الفسق هنا هو الخروج من بعض الإيمان ، وقد يسمى فاسقا من أخر صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ، أو من عق والديه أو أذى جاره فهو فسق لا يخرجه عن حقيقة الإيمان ، ولكن هذه الآية دلت بصريح لفظها على أن المنافقين فارقوا الإيمان . أعاذنا الله مما اقترفوا .

قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ((68)) .

إذا كانت النار وعدا فكيف بالوعيد ؟ !

هذه الآية أخوف آية فى كتاب الله ؛ لأن القلوب تتقلب وقد يقع المؤمن فى النفاق من حيث لا يشعر و (وَعَدَ) تكون للخير ، و (توعد وأوعد) للشر فقوله : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ) تهديد وتهكم بهم ؛ لأن وعد تشير إلى أن الموعود به هو النعيم والخير والجنة ، فلما قال : (نَارَ جَهَنَّمَ) تحققنا أن الخير الذى وعدهم الله به هو نار جهنم ، فكيف يكون وعيده ؟؟ لابد وأن يكون فوق نار جهنم ، وهو اللعن الذى أخبرنا به سبحانه عنهم . أعاذنا الله تعالى .

المنافقون أسفل من الشياطين :

قدمت لك أن جهنم مأخوذة من (جهنام) التى هى البئر العميقة ، فلما تكون نارا عميقة جدا دلت على أن عذابهم يكون مضاعفا ، ودليل ذلك قوله : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) [11] يعنى أنهم أسفل من الشياطين ، لأن أعمالهم شر من أعمال الشياطين ؛ لأن الشيطان لم يؤذ بالفعل رسول الله ، ولم يحارب بالفعل ربه ، ولم يؤذ المؤمنين بالفعل ولكنها وسوسة ، والمنافق قد يفسد على أهل الإيمان عقائدهم وأعمالهم ، فإنا نحتاط من الشيطان ومن الكفار ولكننا لا نحتاط من المنافقين ، ولهذا شمل وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، ودل ذلك على أن هذا العقاب عم الذكور والإناث لأنهم نفوسهم جميعا خلقت من طينة الخبال قال تعالى : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) [12] و (الْكُفَّارَ) هم الذين سترت عنهم حقائق الحق ومعالمه ولم يمنحهم الله قابلا يقبلون ما جاء به رسول الله عن الله تعالى ، والكفر لون واحد والإيمان لون واحد والنفاق ألوان كثيرة .

(خَالِدِينَ فِيهَا) والخلود هو : البقاء الدائم الذى لا ينقطع ، وقد تقدم قوله تعالى : (كلما نضجت لجودهم بدلناهم جلودا غيرها) [13] والحكمة فى ذلك أن الجلد محل العصب الحساس . أما ما تحت الجلد من اللحم فإنه لا يحس بالآلام ، ودليل ذلك أن الأطباء إذا أرادوا عمل جراحة تحت الجلد خدروه بالبنج ثم عملوا عمليتهم كما يشاءون فلا تحدث آلام للمريض .

فهذه الآية التى تقدمت برهان على أن الله يغير جلودهم بجلد آخر ليحسوا بآلام النار فى جلودهم ، فيكون خلودهم فى النار خلود تعذيب وآلام ، فلا تعتاد جلودهم على النار فلا يحسون بآلام بل تزداد آلامهم كلما دام مكثهم . أعاذنا الله من النار . (هِيَ حَسْبُهُمْ) أى : وهى كفايتهم وجزاؤهم على سوء كفرهم بالله تعالى (وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ) اللعنة : هى القطيعة والبعد ، أى : قطعهم عن أن يتذوقوا حلاوة الإيمان أو يتمتعوا بمشاهد الآيات أو يصغوا إلى تسبيح الكائنات فى الدنيا ، والعلم واليقين عينا واليقين حقا ، والشهود كله فى الدنيا ، فمن خرج من الدنيا محروما من أى معنى من تلك المعانى كان فى الآخرة أعمى ، قال تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [14] .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) مقيم : صيغة مبالغة من القيام والاستمرار ويقال : سوق قائمة أى : رائجة ، وقامت الصلاة أى : سارع المسلمون إليها وأقاموها ، فهذا العذاب الذى حكم الله به عليهم مستمر دائم فلا يعتريهم نوم ولا راحة ولا سهو عن الألم ولا نعاس يخفف عنهم ويلات الألم .

([11]) النساء : 145 .
([12]) النور : 26 .
([13]) النساء : 56 .
([14]) الإسراء : 72 .

قوله تعالى : (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ((69) .

بعد أن شنع الله على المنافقين بقوله : (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) ثم حكم عليهم بأنهم هم الفاسقون ، بين الله لهم حالتهم التى هم عليها بتشبيه بليغ المعنى بقوله : (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً) أى : أنتم ايها المنافقون كالذين من قبلكم ووجه الشبه فى ذلك ارتكاب ما يبغضه الله تعالى من الجحد به سبحانه ومن التكذيب برسله صلوات الله عليهم ، ومن العدول عنه بغيره سبحانه (مِنْ قَبْلِكُمْ) أى : قوم نوح وعاد وثمود وصالح وقوم لوط وقوم موسى وعيسى عليهم السلام (كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً) فى الجسم والجرأة على فعل المنكرات والظلم الفادح (وأكثر أموالا وأولادا) لأن قوة الجسم والأموال والأولاد كانت فيما مضى لها السلطان القاهر حيث لم يكن هناك وسائل دفاع قبل استخدام الحديد والنار ، فذو القوة من الناس يخضع له جميع بنى الإنسان ، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان مجملا بالعدل والفضل والرحمة الواسعة ومداراة الخلق والحجة البالغة فى أسلوب حكيم من غير تنفير ، ولقد بلغ من رحمته وجمال خلقه مبلغا عاتبه الله عليه عتابا قاسيا بقوله : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) [15] وقوله : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ) [16] وبقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [17] ولو قرأناها على رواية الإضافة لظهرت أخلاقه الإلهية التى جمله الله بها ، فإنك لو قرأت الآية (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقِ عَظِيمٍ) أى : على خلق الله تعالى لعلمنا ما كان عليه من الرحمة التى أخبرنا الله فيها بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [18] فلم تبق حجة للمنافقين إلا أنهم سقطوا بسبب قسوته أو قهره أو دعائه عليهم كما فعل الرسل من قبله ، وما بقى إلا أنهم ـ أعاذنا الله من عملهم ـ أهلكوا أنفسهم بنفاقهم له (صلى الله عليه وسلم) .

(فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ)

(الخلاق) هو النصيب وهو الذى خلقه الله وقدره لهم فإذا حصن بالشريعة لا يقال له خلاق ولكن يقال هو حلال طيب ، واستمتع بكذا أى : تمتع به (والألف والسين) هنا دالة على أن متعتهم هذه كانت لشهوة وطلب ورغبة منهم ، لأن الألف والسين والتاء تكون للطلب ولو قال : فتمتعوا لصحت الجملة ، والقرآن لا يأتى بحرف واحد إلا له معنى يتذوقه من عرف مقام القرآن ومقام المتكلم ، وما كنتم أيها المنافقون منهم وجمعتكم بمن سبقكم جامعة الشبه .

(فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ) و (الفاء) هنا للترتيب أى : فأحببتم لأنفسكم ما تميل إليه فطركم البهيمية والابليسية علانية وسفك الدماء ظلما كمن سبقكم ، ولكنكم فضلتم الكيد والمسارعة إلى سفك الدماء حيلة ودهاء لمقتضيات الزمن الذى أنتم فيه ولو أنكم كنتم فى زمن الأمم السابقة أيام كان القوى يقهر من شاء بلا مانع لفعلتم شرا مما فعلوا ، ومن استمتاعكم بخلاقكم أنكم أسررتم الكفر وأظهرتم الإيمان فكشف الله الستر عما فى ضمائركم حتى ظهر لأهل الإيمان .

(كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ) هذه الآية الشريفة توكيد للآية الأولى وفيها من التوبيخ والتهديد والتشنيع مالا يخفى على أهل البيان ، (والكاف) هنا أداة تشبيه (وما) مصدرية صاغت الفعل مصدرا كاستمتاع الذين من قبلكم وقد تقدم تأويلها (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) تقدم معنى الخوض ، وهو : المشى فى الخضخاض من الطين السائل ، وهنا تدل على عمل ما يؤذى وينجس القلوب و (الذى) هنا حرف مصدر ، أى: وخضتم كخوضهم ؛ لأنه صاغ الفعل مصدرا وليس باسم موصول .

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

الإشارة هنا عائدة إلى من جحدوا بالله وكذبوا برسله من الأمم السابقة وقد التحق بهم المنافقون فى عصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والمنافقون بعده إلى يوم القيامة ، فإن الأرض لا تخلو من كافر ومنافق ومؤمن ومحسن ؛ لأن

([15]) آل عمران : 159 .
([16]) الكهف : 6 .
([17]) القلم : 4 .
([18]) الأنبياء : 107 .

الله ظاهر بأسماء جماله وجلاله ، ولكل اسم من أسماء جلاله مظاهر من الخلق ولكل اسم من أسماء جماله مظاهر منهم ، فالعالم كله نجسه وطاهره مؤمنه وكافره مظهر أسماء الجمال والجلال ، لا تتفرق مظاهر الجمال والجلال الإلهى إلا يوم القيامة ؛ حيث يكون أهل الجلال فى نار جهنم ، وأهل الجمال فى النعيم المقيم الأبدى ، أما فى تلك الدار الدنيا فقد ترى من تظنه مؤمنا تقيا فتتخذه لك حبيبا وصديقا وهو منافق ملعون عند الله تعالى، حتى إذا قامت القيامة ظهرت حقائق النفوس فكانت المسرة والأفراح أو الفضيحة والأتراح .حفظنا الله فى هذه الدار الدنيا من الفضيحة وأكرمنا فى الآخرة بصحبة الأخيار إنه مجيب الدعاء .

الحذر ممن اتخذ العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا :

و (الحبوط) هو سلب فوائد الأعمال القلبية والجسمانية أو خيبتهم فيما لأجله عملوا ؛ فليحذر أهل الإيمان من حبوط أعمالهم بسبب نفاقهم الخفى ، وهذا لا يكون إلا ممن نسى يوم القيامة ، فكم من عالم وعابد وزاهد يرائى الناس ولا يراعى جانب الله تعالى ، وكم منهم من جعل العبادة تجارة يجمع بها أموال الناس ظلما ، ومنهم من جعل العلم آلة ووسيلة لجمع حطام الدنيا ، والعلم أعز وأغلى من أن يكون وسيلة قرب لغير الله تعالى فالله هو المقصد الأعظم فى الحقيقة ، ومن طلب العلم وجعله وسيلة لجمع الحطام الزائل أو لرفع الشأن والجاه بين الناس وضعه فى غير موضعه ، فكان ظالما ، و (الظلم) شرك عظيم .

العالم الحقيقى :

والعالم فى الحقيقة : هو من يخشى الله تعالى ، فلو أننا رأينا عالما تعلم علم الأوائل والأواخر ولم نره يخشى الله تعالى وحكمنا أنه عالم افترينا على الله كذبا ، لقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [19] فحصر الخشية فى العلماء ولم يحصر العلم فيهم ، فالخشية لا تتعدى العلماء ، والعلم يتعداهم إلى من لم يكن ذا خشية لأنه يكون متعلما لا عالما ولو علم ما فى السموات وما فى الأرض (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الإشارة هنا عائدة إلى من شنع الله عليهم فى الآيات السابقة ، وقوله : (هُمُ الْخَاسِرُونَ) لأن أعمالهم حبطت فخسروا ثمرات تلك الأعمال فى الدنيا ؛ لأن الله كشف الستر عنهم فظهرت مكائدهم وخدعهم لأهل الإيمان ، فأذل الله المنافقين وأخزاهم (والخسران) معلوم وهو فقد ثمار العلم أو تعسر الحصول عليها .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)) .

تقدم الكلام على قوله تعالى (ألم) وهو استفهام إنكار على من طال تعليمه فلم يفقه أو فقه ولم يعمل بعلمه ، أو عمل بجسمه ولم يعمل بقلبه ، وهذه خصال المنافقين .

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

أى : خبرهم مبينا بالحجة الدامغة ، وذلك أن نوحا ومن بعده من الرسل عليهم السلام أنكر عليهم أممهم فانتقم الله من تلك الأمم فمنهم من مسخهم قردة وخنازير ، ومنهم من أغرقهم ومنهم من سلط عليهم الطاعون فأهلكهم ، ومنهم من أهلكتهم الريح العقيم .

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينا من يوم الهجرة إلى يوم القيامة :

وأما المنافقين من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإن الله أمنهم من تلك البلايا الفادحة ، ولكنه جل جلاله عذبهم بأنواع أخرى لا تستأصلهم جميعا رحمة بمن يخرج من ظهورهم فيوحد الله تعالى فحفظهم من البلايا المهلكة بدليل قوله :

([19]) فاطر : 28 .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) [20] ، وهو (صلى الله عليه وسلم) فينا من يوم الهجرة إلى يوم القيامة بما ورثناه عنه (صلى الله عليه وسلم) من القرآن والسنة ومن أسراره المحمدية صلوات الله وسلامه عليه ؛ لأننا لم نفقد إلا ذاته ومن قال فقدت رسول الله بهذا اللفظ جهل مقداره (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك فالله يقول : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ) [21] ولم يقل (وما رسول الله) فإن رسالته باقية أبدا ، ودليلنا فى خلود رسالته قول الله تعالى : (وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وتنزه الله أن يظلمنا فينسخ شريعته ويدعنا فى جاهلية عمياء صماء فلا يرسل لنا رسولا يهدينا إليه .

ولذلك فإن مالك بن أنس رضى الله عنه لم يخطئ حين قال : زرت قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوجبت على زائره أن يقول : زرت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه حي بآثاره باق بأنواره ، وإن المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها يمثلونه صلوات الله عليه عقيدة وعبادة وأخلاقا وعملا وحالا ، ولا تزال أنواره وأسراره تتجدد على ألسنة ورثته العلماء وخلفائه العظماء صلوات الله وسلامه عليهم قال سبحانه : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) وقال تعالى : (لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ) أى : لا يخزيه فى أمته ، وهذه الآية برهان قوى على ثبوت الشفاعة له يوم القيامة , وقد تقدم الكلام على نوح وقومه وعلى بقية من بعده من الأنبياء وأممهم فى سورة الأعراف .

التسليم طريق أهل المعرفة :

أما المؤتفكات فهم قوم لوط (وائتفك يأتفك) انقلب ينقلب وأهل الانقلاب هم الذين قلبت بهم الأرض .

قال أهل الشهود : إن جبريل حملها على ريشة من جناحه ورفعها وعكسها ، وقال أهل العقول : - من الذين يخافون على الله - إن القلب كان لأحوالهم وشؤونهم كما تأولوا المسخ انه لحقائقهم الأخلاقية والعلمية ، والواجب ان نسلم لكلام الله تسليما فلا نتأول إلا ما غمضت حقيقته علينا مما يدعوا إلى التشبيه المجسم الذى يتنزه الله عنه ، ولكن أهل المعرفة سلموا لله فيما قال ، فإذا قال (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) قلنا له يد ولكن ليست كالأيدى ، وإذا قال : (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) قلنا الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وأما القول الصريح الجلى فذلك حظر تأوله والواجب التسليم المطلق .

(وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) أى البلدان التى انخسفت بمن فيها بما ابتليت به ، ولم نبعد ونحن نسمع فى عصرنا هذا أن مدنا برمتها قلبت فأصبحت بحارا أو جبالا أو مغارات لا أنيس بها ، وليست حوادث اليابان بعيدة عن نظرنا ولا البراكين التى تثور فى إيطاليا بغائبة عنا ، ولو قسنا الغائب بالحاضر لسلمنا للقرآن تسليما ، وقدرة الله صالحة أن تحدث ما شاءت وأن تعدم ما شاءت وأن تغير فى نفس واحد فتجعل السعيد شقيا والشقى سعيدا .

(أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

أى : أن الله سبحانه أرسل نوحا ومن بعده لأممهم بالبينات أي : بالحجج الناصعة وبالآيات الجلية الواضحة فلم يأتوهم بما لا يطيقون ولا بما لا يتصورون ، بل كانت البيانات التى أثبتت بها الرسل (صلى الله عليه وسلم) معقولة مفهومه (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) (الفاء) هنا للفصيحة ومعناها أنها أفصحت عن جواب بشرط مقدر تقديره إذا تحقق هذا فما كان الله ليظلمهم ، أى : إن غاية الله بخلقه فى إرسال الرسل بالحجج البالغة والبينات الجلية فضل منه تعالى وإحسان عام ، وإنكار الأمم ومحاربتهم لله تعالى ولرسله صلوات الله عليهم عناد وكفر يوجبان سريع العقوبة الانتقامية عدلا ، وسرعة نقمة الله تعالى منهم هو عين العدل الذى لا ظلم فيه وتنزه ربنا وتعالى عن أن يكون ظالما ، فإن الظالم من عمل ما أراد فى غير ملكه وبغير حكمة والله تعالى قادر حكيم عادل .

وفى هذه الآية تقريع وتشنيع وتهديد للقوم وتخويف وإنذار لغيرهم ممن فسدت نفوسهم أو خبثت طباعهم حتى تكون الحجة لله عليهم بعد .

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

الجملة هنا استئنائية وكأنها جواب بسؤال تقديره أنت سبحانه لم تظلمهم وأرسلت لهم الرسل وأنت القادر على أن تهديهم وتدلهم عليك ، فقال تعالى : (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أى : أنه سبحانه كتب كتابين فى أزله ، كتاب القدر

([20]) الأنفال : 33 .
([21]) آل عمران : 144 .

وستره عن الخلق ، وكتاب الأمر والنهى وأظهره لهم ، فخالفوا ما أظهره الله لهم من غير أن يعلموا ما قدر عليهم ، ومن عرف نفسه عرف ربه فجله فى أمره وعظمه فى نهيه ، وتقديم المفعول هنا على الفعل والفاعل لكى يفهمه أهل المعانى حتى تنكشف الحقيقة للسامع قبل كمال الجملة ، لأنه سبحانه لو قال : (ولكن كانوا يظلمون أنفسهم) لسبق إلى الذهن أنهم ظلموا غيرهم قبل الإتيان بالمفعول وفيه من التخويف وانزعاج القلوب ما فيه .

قوله تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)) .

كما بين الله تعالى صفات المنافقين والكافرين وبين ما توعدهم به من عذاب النار ومن الخلود فيها ، بين لنا سبحانه صفات المؤمنين وما أعده لهم من النعيم يوم القيامة فقال سبحانه .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

تأويل هذه الآية الشريفة : أن المؤمنين والمؤمنات منحهم الله تعالى نورا جعله فى قلوبهم تنكشف لهم به حقائق الآيات البينات القائمات حججا لوحدانية الله تعالى ودلائل على صدق رسالته (صلى الله عليه وسلم) فهم متكافئون فى العلم والمعرفة والصدق ، ولذلك كان بعضهم أولياء بعض لا يقلدون إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى جميع الأعمال من عادة ومعاملة وأحوال ، وقد طهر الله قلوبهم ، فلا يقلدون فى علوم الغيب من العقيدة ومن التصديق بأيام الله ، ومن فهم أحكام الله تعالى إلا ما يلهمهم الله به على لسان ملك الإلهام الذى هو فى قوة الوحى للأنبياء قال (صلى الله عليه وسلم) : (إن فيكم محدثين - بفتح الحاء - وإن عمر منهم ومعنى الحديث : أن أهل الإيمان يتفضل الله تعالى على بعضهم بالإلهام فيحدثهم الله فى قلوبهم بما يحبه منهم سبحانه وكلام نبيه (صلى الله عليه وسلم) وبيانا لما فى الآفاق مما فى السموات وما فى الأرض ، وما فى الأنفس من الآيات البينات . أما قوله تعالى : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) أى : إنهم مقلدون لآبائهم وأجدادهم فهم كالنباتات والبهائم وسائر الحيوانات التى لا تختلف عن أصولها ، وذلك لخبث طباعهم ورداءة جواهر أنفسهم فهم من بعض كأنهم رجل واحد فطروا على النفاق ، أما المؤمنون فإنهم ينقلون علوم الإيمان التى ينعقد عليها القلب من ملك الإلهام فلا يقلد مؤمن مؤمنا إلا إذا تحقق صدقه وموافقة ما بينه الكتاب والسنة ، ولا تقبل نفوسهم الضلال مهما كان شأن قائله .

ولهذا قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) [22] فالمؤمن إذا لمت بقلبه وسوسة من شيطان ، أدركه الله بنور الإلهام فرجع إلى الله وأناب (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) هذه الآية مقابل قوله سبحانه فى شان المنافقين : (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) .

وقد جاءت هذه الآية بعد أربع آيات سابقة عن أحوال صفات المنافقين والمنافقات، ختم الله أولاها بقوله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وختم الثانية بقوله جل جلاله : (وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) وختم الثالثة بقوله جل علاه : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وختم الرابعة بقوله الحق : (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ثم أتى بهذه الآية الكريمة ليبين أحوال وصفات المؤمنين ؛ فقال جل شأنه : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ) أى : والمصدقون بالله ورسوله والمصدقات (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) أى : بعضهم أعوان بعض يتعاونوا على البر والتقوى ، ويتواصوا بينهم بالحق ويتواصوا بالصبر ، إذ أن ولايتهم لبعضهم تحتم عليهم المحافظة على جماعتهم من الوقوع فى معاصى الله وسخطه ، لا فرق بين كبير وصغير أو حقير وأمير أو آباء وأبناء ، فالله تعالى حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، إذ ليس للإنسان فضل فى إيمانه ؛ لأن الإيمان بالحق ليس من طبيعة البشر ، بهذا وصف الله تعالى المنافقين والمنافقات بأن (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) أى : الأبناء من الآباء والآخرين من الأجداد ، أما المؤمنون والمؤمنات فلا يجمعهم نسب ولا مصاهرة وإنما يجمعهم الإيمان والتعاون على البر والتقوى ، وهذا هو الفرق بين صيغة الآيتين فقال تعالى فى المنافقين : (بعضهم من بعض) وقال فى حق المؤمنين : (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) .

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

([22]) الأعراف : 201 .

أى : يجاهدون أنفسهم فى دعوة الخلق إلى الحق ، بعد نجاحهم فى التحلى بما هو حسن من الأخلاق ، فيأمرون بما يوافق شعب الإيمان ، كما جاءت فى آيات القرآن ؛ لأن المعروف هو ما تطمئن إليه القلوب السليمة وترضى به النفوس الزكية ، وتقبله العقول الواعية (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) أى : يجاهدون أنفسهم فى التخلى عن الرذائل قبل أن يأمروا الناس بعمل الفضائل ؛ لأن المنكر هو أن يأمر الواعظ الناس بما لا يفعله ، وينهاهم عن الشئ ثم يعمله . ولهذا أعقب الله تعالى النهى عن المنكر بقوله سبحانه : (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) إقامة تكشف أسرارها بعد شهود أنوارها حال حضور المصلى مع الآمر بها ، وبذلك تنهيه صلاته عن فعل كمل ما يغضب ربه (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى : يطهرون أنفسهم من شحها ، بأداء زكاة أموالهم إلى أهلها .

(يُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

فى هذه الآية تعميم للطاعات كلها ، بعد تخصيص بعضها وإن كان ما خصصه الله يشمل المحاسن جميعها ، إلا أنه سبحانه أراد بالتعميم دخول القائمين بالتخصيص تحت لواء من عناهم الله بقوله : (أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) أى : يهديهم بأمانهم ويوفقهم بتجليات اسمه الرحمن فى الدنيا ، ويسبغ عليهم حقيقة الرحمة باسمه الرحيم فى الآخرة ، وبذلك تشمل الرحمة ظاهرهم وباطنهم . (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أى : يعزهم فى كل أمورهم بعزته ، ويكرمهم بفضله بإتيانهم الحكمة ، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وبالتالى يمكنه أن يعطى غيره مما أعطاه الله ، أما من لم يعطه الله شيئا فلا يستطيع أن يعطى أحدا لأن فاقد الشئ لا يعطيه .

قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)) .

اتصال الآية بما قبلها :

بعد أن بين الله تعالى صفات المنافقين والكافرين ، وعاقبتهم فى الدنيا ومآلهم فى الآخرة ، وأعقب ذلك بذكر صفات المؤمنين وحالهم فى الدنيا وما سينالهم فى الآخرة ، ناسب أن يذكر لنا ما أعده لهم ووعدهم به من ثواب فقال تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أى : المصدقين والمصدقات المذكورة صفاتهم وأعمالهم فى الآية السابقة ، لهم عنده وعد لا يخلفه بأن يدخلهم (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : بساتين مثمرة معدة على نظام بديع وإتقان لا مثيل له ولا نظير ، تجرى من تحت أشجارها وقصورها أنهار عذب فرات ماؤها ، خضر سندس أوراق نباتها طيب الرائحة أريج أزهارها ، (خَالِدِينَ فِيهَا) أى : مقيمين فيها إقامة دائمة بغير خروج منها ولا زوال لنعيمها أبدا (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) أى : فيها لهم دور ذات غرف من فوق غرف ، أعدها وزينها القادر الحكيم الذى يقول للشئ كن فيكون ، وجعلها خير سكن للمؤمنين من عباده ، وزادهم فوق خلودهم فى هذا النعيم رضاه الدائم فلا يسخط عليهم أبدا كما يفيد معنى قوله تعالى : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أى : يكشف لهم الحجب عن جماله ، ويبيح لهم النظر إلى وجهه ، ويكرمهم على بساط أنسه .

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا يمكن وصفه بالعبارات ، ولا الإيماء إليه بالإشارات ، لأنه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف يمكن وصفه أو تحديد نوعه ، أو تعريف كنهه . نسأل الله تعالى أن يزج بنا فى علياء قدسه ، حتى نفوز بصحبة الأحبة ، محمد رسول الله وحزبه .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)).

اتصال الآية بما قبلها :

بعد أن أخبرنا الله تعالى بولاية المؤمنين بعضهم بعضا ، وذكر لنا خمسة من صفاتهم ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ، وبين لنا ما وعدهم الله به من جنات ومساكن ورضوان ،

وحكم بأن ذلك هو الفوز العظيم ، وهو حكم حق لأنه حكم العليم الخبير ، ناسب أن يأمرنا سبحانه بالجهاد ، لأن به نوال كل مراد ، وبه تزكية النفوس ، حتى تقبل على حضرة القدوس ، فقال سبحانه لنبيه - والقول لنا : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) أى : يا من اصطفيتك لتخبر عبادى ، بأوامري ومرادى (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ) أى : حرض المؤمنين على قتالهم ليقاتلوهم معك (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) أى : أظهر لهم الشدة وعاملهم بقسوة فإن نفوسهم خبيثة لا يصلحها اللين ولا العطف ولا الرحمة والرأفة الموصوف بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : أن هؤلاء الكفار والمنافقون مصيرهم وإقامتهم الدائمة الخالدة فى دار جهنم يوم القيامة ، وبئس المأوى مأواهم ، وبئس العاقبة عاقبتهم ، وهذا هو حكم ربهم عليهم ، فهو أعلم بما يفعلون فى دنياهم ، ومطلع على خفى نواياهم .

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا)

أى : يقسمون الأيمان المغلظة ، ويحلفون بالله تعالى أنهم ما قالوا هذا القول الذى بلغ مسامع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من السب والقذف فى الدين ، والتحريض على خيانة المسلمين مع السخرية بالإسلام .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية أن بعض المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم بألسنتهم وظلت على الكفر قلوبهم ، اجتمعوا معا وتآمروا على تحريض المقاتلين من ضعاف الإيمان بألا يخرجوا مع المسلمين فى معركة تبوك ، وبلغ ذلك رسول الله ، فطلبهم وقال لهم : (هل قلتم ما بلغنى عنكم) ، فحلفوا له بالله ما قالوا فتجاوز عنهم (صلى الله عليه وسلم) ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذبهم وتفضح أمرهم رغم ما أقسموا به من أيمان مغلظة .

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

أى : ولقد قال هؤلاء المنافقون كلمات أثبتت أن الكفر كامن فى قلوبهم ، بحيث لا ينفعهم كذبهم وإنكارهم لما قالوا ، بل إن قسمهم الإيمان وحلفهم بالله تعالى كذبا يعد إثما فوق إثمهم .

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)

معنى هذه الآية : أن إسلامهم بألسنتهم نفاقا كان محسوبا لهم قبل أن تنطق ألسنتهم بمكنون قلوبهم ، أما الآن بعد قولهم كلمة الكفر ، فقد ارتدوا عن الإسلام الظاهرى الذى كانوا يتظاهرون به ، وأصبحوا كفارا يجب على المؤمنين أن يعاملوهم معاملة الكافرين (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) أى وبيتوا التآمر والخديعة أذية للنبى ومن معه من المؤمنين الصادقين ، ولكن الله خذلهم وكشف تآمرهم ولم يمكنهم من نوال ما يبغون من أذية النبى (صلى الله عليه وسلم) وصحبه ، (وَمَا نَقَمُوا) أى : لم يفعل الرسول والمؤمنون لهم شيئا يكرهونه ، ولم يسيئوا إليهم (إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) أى : بل بالعكس إنهم لم يعزموا على خديعة النبى ومن معه من المؤمنين وبيتوا قتلهم إلا من بعد أن أغناهم الله بما أعطاهم النبى من غنائم المقاتلين من المؤمنين ، وهذا جحود خبيث لا يصدر إلا عن نفوس خبيثة لا يصلحها اللين والرأفة والرحمة ، وإنما يصلحها الشدة والقسوة والإهانة لأنهم قوم لا أمان لهم ، بل هم أشر على المسلمين من الكافرين المهاجرين بالكفر ، فقد طبعت النفوس الخبيثة التى خلقت من أردأ العناصر على الإساءة لمن أحسن إليها (فَإِنْ يَتُوبُوا) أى : فإن يرجعوا عن غيهم ونفاقهم وخيانتهم وكراهيتهم لرسول الله والمؤمنين (يَكُ خَيْرًا لَهُمْ) أى : إن حدث منهم متاب صادق بعد اعتراف بالذنب وتكفير له ، وأقاموا الدليل على صدق إيمانهم كان ذلك سعادة لهم فى الدنيا وخير عظيم فى الآخرة (وَإِنْ يَتَوَلَّوْا) أى : وإن يعرضوا ويصروا على ما فعلوا (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أى : يعاقبهم الله تعالى بالقتل أو بالأسر أو بالنفى فى الدنيا ، ثم يعذبهم العذاب الأكبر ، والعقاب الأشد فى القبر والبرزخ ، وفى الآخرة : تلبسهم الحسرة الدائمة الخالدة التى لا نهاية لها .

(وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

أى : وليس لهم فى الحياة الدنيا على وجه الأرض من ولى يحميهم منكم ولا نصير ينصرهم عليكم ويدفع عنهم عذاب القتل وخزى الأسر وألم الندم .

وقد تحقق صدق هذه الآية القرآنية الكريمة بعد عدة سنوات من نزولها ، حيث لم يعد لأهل الكفر أدنى قوة تحمى أمثال هؤلاء المنافقين ، وصار للإسلام والمسلمين العزة والكرامة والقوة الغالبة والمنعة ، ولولا ما اتصف به المسلمون من رحمة لما بقى من الكافرين أحد .

خصوصيته (صلى الله عليه وسلم) فى النداء الإلهى :

وفى هاتين الآيتين بعض الأسرار والمعانى ، وإن كان قد سبق لنا الإشارة إليها إلا أننا لا نخلى هذه المناسبة من المزيد ، من ذلك : ما بدأت به الآية الأولى من نداء الله تعالى لحبيبه ومصطفاه بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) ففى هذا النداء خصوصية انفرد بها المصطفى عليه الصلاة والسلام دون جميع الأنبياء والمرسلين ، فخطاب الله معهم ونداءه لهم يكون دائما بأسمائهم مجردة من الألقاب باستثناء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فنداء الله له ينعت دائما بالنبوة أو الرسالة تعظيما له وتشريفا لمقامه المحمود وإشارة تكشف للقارئ اللبيب أنه (صلى الله عليه وسلم) أفضل الخلق أجمعين .

النفوس الطيبة تصلحها الرحمة والنفوس الخبيثة تصلحها القسوة :

وسر آخر كامن طى امر الله تعالى لحبيبه ومصطفاه فى قوله :(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) مع أنه سبحانه وتعالى وصفه بالرأفة والرحمة فى موضع من القرآن ، وفى موضع آخر قال سبحانه : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) [23] وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فكيف يأمره بعد ذلك بالشدة والقسوة والقتل ، وأن يستعمل مع المنافقين الغلظة والقهر ؟ !

اللهم إلا إذا كان ذلك ليخبرنا جل جلاله بسر اختلاف النفوس وتفاوت طبائعها وميولها ، وتباين فطرها حسب معادنها التى خلقت منها ، فمنها : النفوس الطيبة التى تصلحها الكرامة وتزكيها العلوم وتطهرها المواعظ وترقيها الحكمة وتؤلفها الرحمة وتؤدبها الرأفة . ومنها النفوس الخبيثة : التى إذا أكرمتها طغت وإذا علمتها استكبرت وإذا وعظتها أعرضت وإذا رحمتها بغت وإذا مدحتها اغترت وإذا أحسنت إليها أساءت وإذا حاولت هدايتها تولت وضلت ، فجعل الله جهادها دواءها ، وفى الشدة عليها أدبها ، وفى الغلظة قمعها ؛ فإن لم ينصلح حالها فقتلها ردعا لظلمها وفسادها ، ووقاية لغيرها من التشبه بها .

وهكذا نعلم أن من النفوس ما يصلحها الاكرام والرحمة ، ومنها ما يصلحها الإهانة والقسوة والشدة كما عبر عن هذا المعنى من قال ..

إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وبذلك نعرف كيفا نعامل كل نفس حسب مقتضى نوعها الذى يظهره التعامل معها . وقانا الله من شر كل نفس خبيثة ، وجمعنا بفضله على النفوس الطيبة الصالحة ، وحفظنا بإحسانه من تغير الأحوال إلا إذا كان إلى أحسن حال .

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)) .

بعد أن أخبرنا الله تعالى فى الآيات السابقة بأن النفوس الخبيثة المنافقة يفسدها الغنى والشبع ،والنفوس اللئيمة يظهر الإكرام تمردها على من أكرمها وأحسن إليها شرع يبين لنا فى هذه الآيات حال وصفات نوع آخر من هذا الصنف الخبيث الذى فطر على النفاق والملق ؛ فقال تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ) أى : واثق الله وأشهد الناس على عهده ويقسم بالله تعالى (لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ) اى لئن أغنانا الله بعد فقر ، وتفضل علينا بوسعة الرزق (لَنَصَّدَّقَنَّ) أى : لنخرجن من تلك الأرزاق صدقات للفقراء والمساكين ، فوق حقهم فى الزكاة كل حين ، (وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) أى : الذين يصلحهم الغنى فيجعلهم يقومون بالأعمال الصالحة وهم شاكرون .

([23]) آل عمران : 159 .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول هذه الآية : ما رواه الطبرانى ، وابن مردوية ، وابن ابى حاتم ، والبيهقى عن أبى أمامة أن ثعلبة بن حاطب كان رجلا فقيرا ولا عمل له وكان ملازما لمسجد رسول الله ليل نهار لا يبارحه ، فقال يوما لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (ادع الله أن يرزقنى مالا كثيرا) فقال رسول الله : (ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه) فأقسم بالله تعالى قائلا : (والله لئن آتانى مالا لأوتين كل ذى حق حقه ، فدعا له رسول الله فاتخذ غنما يرعاها على مقربة من المسجد ، فنمت بسرعة حتى ضاقت بها شعاب المدينة ، فانتحى بها مكان واسع خارج المدينة ، فكان يحضر للصلاة كل وقت فى المسجد ثم يخرج لرعايتها بعد الصلاة ، حتى نمت وكثرت فذهب بها إلى مكان أبعد وأوسع ، فشغلته كثرتها وبعد المكان عن شهود الصلاة ، حتى الجمعة والجماعات لم يعد يحضرها .

وعندما أنزل الله تعالى على رسوله (صلى الله عليه وسلم) آية الزكاة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم) [24] فاستعمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الصدقات وجمع الزكاة رجلين فأتيا ثعلبة فأطلعاه على مهمتهما فقال : (انطلقا إلى الناس فإذا فرغتما فمرا بى) فلما فعلا قال : (ما هذه إلا أخت الجزية) وأبى إعطائهما شيئا ، فلما وصلا إلى رسول الله وجدا أن هذه الآيات الثلاث قد نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعلوم أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أى : استجاب الله تعالى لدعاء رسوله ووسع الرزق على بعض عباده بعد إملاق (بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) أى : تصرفوا تصرف الأطفال الصغار الذين إذا أعطاهم الوالد رغيفا ، ثم طلب منهم لقمة أبوا وانتحوا بالرغيف جانبا ، وهؤلاء نسوا أن الله تعالى هو الذى أعطاهم من فضله ، وهو الذى أمرهم بأداء حقوق عباده ، وهو قادر على أخذ ما أعطاهم إذا شاء وإعادتهم إلى ما كانوا عليه فقراء ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره .

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ)

أى : أن كثرة الأموال ووسعة الأرزاق كانت سببا فى إصابة قلوبهم بمرض النفاق ، وإصابة نفوسهم بعاهة البخل شحا بحقوق الخلق كما عاهدوا الحق ، وهذا أسوأ عاقبة تصيب مخلوق ؛ لأن قوله تعالى : (إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) فيه من الوعيد والتهديد أكثر مما لو قال إلى يوم القيامة ، بمعنى ماذا سيكون حالهم يوم يلقون ربهم (بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ) أى : كفاهم خزيا وذلا وعذابا أن يلقون الله على حالهم هذا الموصوم بمخالفة الله ما وعدوه من إعطاء كل ذى حق حقه (وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وهذا الكذب إثم آخر فوق إثم المخالفة ونقض العهد ؛ إذ كيف يكذبون على الله ورسوله عند قسمهم بذات الله العلية ثم لا يوفون بما عاهدوه . وقد ورد أن ثعلبة أسرع إلى رسول الله بعد نزول هذه الآيات يسوق أمامه زكاة غنمه فرده (صلى الله عليه وسلم) قائلا له : (إن الله تعالى قد منعنى أن أقبل منك) فجثا ثعلبة على الأرض وجعل يحثوا التراب على رأسه ، ثم جاء بها إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أثناء خلافته فلم يقبلها منه عملا بسنة رسول الله وكذلك فعل مع عمر وعثمان رضى الله عنهما فلم يقبلا منه حتى مات ثعلبة ولم تقبل منه زكاة أمواله . نعوذ بالله تعالى من سابقة السوء ، ونسأله سبحانه سابقة الحسنى فى البداية والنهاية حتى يختم لنا بحسن العاقبة انه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)) .

من المنافقين من هو قادر بطبعه على التلون بلون أهل الإيمان :

لما كانت ألوان النفاق عديدة لا تعد ولا تحصى ، وخطر المنافقين على بسطاء المؤمنين أمر وارد ، ولا يمكن تجنبه إلا لأقلية من أهل البصائر ؛ لأن من المنافقين رجال قادرون بطبعهم على التلون بلون أهل الإيمان والظهور بمظهر أولياء الله الصالحين ، فيعملون بأعمالهم ويتحمسون لمبادئهم ويندمجون فيهم ، حتى يخيل لمن يراهم أنهم من خواص المؤمنين ، مع أنهم يخفون الكفر بالله فى أعماق قلوبهم ، ويضمرون إضلال المؤمنين فى طيات نفوسهم ، لهذا وجه الله إليهم هذا التحذير والتهديد فقال تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) وأنه قادر على كشف نواياهم للعارفين به

([24]) التوبة : 107.

سبحانه ، ولكنه يمهلهم ولا يهملهم فيملى لهم ليزدادوا إثما على إثمهم ، وإنهم لن يضلوا إلا من كتب الله عليهم الضلال فى سابق علمه الأزلى .

قوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) معناه أن الخلق جميعا عبيده بحكم خلقهم ، وأنه أعلم بهم وبما فى نفوسهم ، وهم ليسوا إلا مرائى تتجلى فيهم أسماؤه وصفاته، فيهتدى منهم من كتب الله له الهداية ، ويضل منهم من قدر الله عليه الضلالة ، فعلام الغيوب أى يعلم ما يسرون فى أنفسهم ، كما يعلم ما يقولون بألسنتهم من قبل أن يبرأ الأرض ومن عليها.

قوله تعالى : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)) .

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة بعض ألوان النفاق التى تصيب النفوس المريضة بالعلل والأغراض ، وأشار إلى أن بعضها واضح بحيث لا يستعصى كشفه على المؤمن العادى ، والبعض الآخر كامن فى طى القلوب مخفى فى باطن النفوس لا يكشفه إلا أهل البصائر بعد التمحيص والتجارب ، ناسب أن يبين لنا فى هذه الآية الشريفة لون آخر من النفاق ، وهو نفاق أهل اللوم والمعايب الآخذين دائما بالاعتراض ، فقال تعالى : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ) أى : الذين يعيبون على المؤمنين ما يفعلون كما يعيبون عليهم نقيضه . وسبب نزول هذه الآية : أنه لما نزل قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [25] جلس عدد من المنافقين يتغامزون ويتلامزون اعتراضا على كل من جاء بصدقة ، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أبن مسعود أنه قال : جاء رجل يحمل إلى رسول الله صدقته وقد ناء بحملها ظهره لكثرتها ، فتغامز المنافقون بعيونهم وتلامزوا بألسنتهم قائلين : (إن هذا الرجل مراء كبير وقد أتعب نفسه وقصم ظهره بحمله دليل مرائه) فلما جاء بعده رجل آخر لا يحمل سوى صاع من تمر تصدق به ، سخروا منه معيبين عليه ، وهم يقولون : (إن الله تعالى غنى عن صدقة هذا الفقير المحتاج) ثم تضاحكوا فى خبث منكر .

(وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ)

سبب نزول هذه الاية :

وهذه الآية تشير إلى ما رواه الشيخان عن أبن مسعود أيضا حيث قال : (حضر إلى مجلس رسول الله بعض الرجال الأقوياء الأصحاء وأبدوا أسفهم لعدم وجود ما يتصدقون به ، ثم عرضوا أنفسهم على من يشترى جهدهم فى عمل يتصدقون ببعض ما ينالون أجرا على جهدهم ، فسخر منهم المنافقون بالقول المعيب والإشارة الساخرة ؛ فنزل قول الله تعالى : (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) أى فيستهزئون بهم ويجعلونهم محل ضحكهم ؛ فأنزل الله تعالى قوله : (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) أى عاقبهم الله بمثل ما عملوا وجازاهم على سخريتهم بالفقر والذل المهين فى الدنيا (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فى الآخرة ، فتألم رسول الله من سخريتهم بضعفاء المؤمنين وسخريتهم بكل متصدق لوجه الله تعالى ، سواء كانا غنيا مفيضا ، أو فقيرا مقلا ، أو الذين لا يجدون إلا جهدهم ، فلما نزل قول الله تعالى الذى يفيد حكمه بالسخرية منهم فى الدنيا وبالعذاب الأليم فى الآخرة تألم رسول الله لهم وحزن عليهم وصار يستغفر لهم ،فأنزل الله تعالى الآية التالية .

قوله تعالى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)).

المفهوم من سياق الآية السابقة ، أن أصحاب هذه النفوس المنافقة لم يفعلوا سوى قيامهم باللمز والغمز سخرية واعتراضا على كل ما تصدق بشئ سواء كانت صدقته كثيرة أو قليلة ، وسواء كانت من مال موروث عن أهله ، أو مكتسب عن عمله وبذل جهده . فلما عاقبهم الله على سخريتهم بعباده بمثل ما فعلوا فى الدنيا وزادهم بالعذاب الأليم فى الآخرة ، تحركت فى رسول الله رأفته ورحمته التى أودعها الله قلبه الشريف ، فتألم لهم (صلى الله عليه وسلم) وشرع

([25]) التوبة : 104 .

يستغفر لهم الله رغم سخطه وعدم رضاه على ما فعلوه من لمز وغمز وسخرية ، ولكن الله تعالى انزل قوله جل جلاله : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) فقال الرؤف الرحيم (صلى الله عليه وسلم) : (إنى خيرت فاخترت) وظل يستغفر لهم فنزل قول الله تعالى (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) والمراد بالسبعين المبالغة فى الاستغفار واستمراره ، فقال (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه البخارى : (لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر الله لهم لزدت عليها) ولكن الله تعالى حسم الأمر بقوله تعالى : (فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فتوقف رسول الله عن الاستغفار لهم وهو حزين متألم من أجلهم .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

وزادوا على ذلك أنهم آذوا المؤمنين المتصدقين من عباده فخرجوا من دائرة الإيمان (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) أى : حرم كل فاسق خرج عن الإسلام ، وكل فاسد أراد فساد المسلمين من الهداية ، لأن معنى فسق أى : خلع رداء الإيمان وخرج من الإسلام ، ومعنى فسق أى : فسد وعزم على إفساد غيره ، وهؤلاء المنافقون خرجوا من الإسلام وأرادوا بالمسلمين فسادا كبيرا .

سر فى الاستغفار والمغفرة :

وهنا لطيفة بخصوص قول الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [26] وقوله سبحانه : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) [27] فكيف يقول فى هذه الآية : (فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) رغم استغفار رسول الله لهم واستعداده لزيادة الاستغفار إلى أكثر من السبعين مرة والله تعالى يقول فى سورة النساء (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) [28].

وبيانا لهذا نقول : إن الله تعالى علق مغفرته على مشيئته فى الآية الأولى ، وهو الأمر الذى لا جدال فيه لأنه سبحانه يتصرف فى ملكه ، ومن تصرف فيما يملك ملكا مطلقا لا يسأل عما يفعل، ثم أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) فى الآية الثانية أن يخبر عباده الذين أسرفوا على أنفسهم – وليس على غيرهم من العباد – بأن لا يقنطوا من رحمة الله ومغفرته ، وفى الآية الثالثة أخبر الله حبيبه ومصطفاه بأنهم لو ظلموا أنفسهم ولم يصل ظلمهم إلى آخرين وجاءوه مستغفرين واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما .

أما المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين ، فقد انصبت أذيتهم على عباد الله المخلصين ، بغرض صرفهم عن الخير الذى هم إليه يسارعون ، فاستحقوا ألا يغفر الله لهم ، ولم يمنع رسوله إلى الخلق أجمعين من الاستغفار لهم لأنه سبحانه أرسله رحمة للعالمين فعلى الرسول أن يستغفر لكل المذنبين ، ولله أن يغفر أو لا يغفر دون أن يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهؤلاء المنافقين قد سخروا من فقراء المؤمنين ، وآذوا أغنياء المتصدقين فكفروا بالله ورسوله وفسقوا عن الدين (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

قوله تعالى : (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81)) .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين نذر يسير من سماجة المنافقين ، وسخريتهم بفقراء المسلمين ولمزهم وغمزهم لأغنياء المتصدقين ، ثم بين لنا مبلغ رحمة النبى ورأفته بهؤلاء المنافقين ، وطول صبره وحلمه عليهم رغم كثرة أذيتهم له ولأصحابه (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يكن حلمه وصبره ورحمته عبثا ، ولكن كان تعليما للمؤمنين بأخلاق النبيين ، ورقيا عظيما لمقامات الملموزين من المتصدقين ، فمن فقه ما فيها من إشارات ذوقية ، وشهد تلك المشاهد العلية ، تحلى بحلة الأخلاق المحمدية ، ونال فى دنياه الخير الوفير ، وتمتع فى أخراه بثواب الفلاح الكبير .

([26]) النساء : 48 .
([27]) الزمر : 53 .
([28]) النساء : 46 .

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)

وصف الله تعالى فى هذه الآية لونا آخر من ألوان المنافقين ، وبين مبلغ فرحهم بالقعود مع النساء والشيوخ والغلمان ، وتخلفهم عن الخروج مع رسول الله لقتال أعداء الله ، وصفهم بأنهم جبناء النفوس ضعفاء القلوب لا همة لهم ولا عزيمة عندهم .

سبب نزول هذه الآية :

وسبب نزول الآية : ما رواه ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله أمر الناس بالاستعداد لقتال الأعداء فى زمن صائف حار فتباطأ المنافقون (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فلما استحثهم على الاستعداد للمسير اجتمعوا (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) وقال بعضهم فى صورة الناصح الأمين : (يا رسول الله إن الحر شديد ولا نستطيع الخروج ، وإلا أهلكنا هذا القيظ فأمر الله نبيه بالرد عليهم (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) أى : إن تأخرتم عن الخروج معنا اليوم بازلين أموالكم ، ومجاهدين بأنفسكم فى سبيل الله فسيكون مصير المخلفون منكم فى الآخرة نار جهنم ، وهى أشد حرا وعذابا من حرارة الصيف ، وقوله تعالى (لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) أى : لو عرفوا أين مصلحتهم الدنيوية والأخروية ، وجائز أن يكون المقصود معنى الآية الظاهر : لو كانوا يعرفون أن نار جهنم أشد حرا من قيظ هذا الصيف ، لأنه رغم وضوح هذه المعلومة فإنهم جهلاء بها ولو كانوا يفقهونها لما تخلفوا عن رسول الله وعرضوا أنفسهم لغضب الله ومقته . نعوذ بالله من هذا الجهل المركب الذين يزين للناس مخالفة الله ورسوله .

قوله تعالى : (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)) .

هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها ، لأن الفرح يوجب الضحك ، ولكنه ضحك قليل لا يتعدى زمن أعمارهم فى الدنيا ، هذا إن لم يكن أقل وأقصر ؛ لأن القليل فى قول العليم بما سيكون لا يتصور مخلوق مدى قلته وقصره ، كما أن قوله : (وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) لا يحيط أحد سواه سبحانه بمبلغ كثرته وطول مدته اللانهائية ، وقوله جل شأنه (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) نفى للظلم عن ذاته العلية ، لأنه سبحانه وهبهم العقول التى تميز بين النافع والضار ، وتفرق بين الخير والشر ، وأهلهم لحمل أمانة الاختيار بين البدائل ، فاختاروا ما يتفق مع حظوظ قلوبهم وأهواء نفوسهم على ما أمرهم به الله ورسوله فكان جزاءهم يتوافق مع اختيارهم الذى كسبوه .

قوله تعالى : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83)) .

وهذه الآية أيضا تخص طائفة المنافقين الذين سبق وصفهم والكلام عن أحوالهم فى الآيات السابقة فقوله تعالى : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) أى : أعادك الله من غزوة تبوك سالما إلى المدينة حيث تخلف المنافقون ، وجاءتك طائفة أو جماعة منهم (فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ) أى : وطلبوا منك الخروج معك فى غزواتك القادمة (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) أى فارفض طلبهم وقل لهم لن أقبل منكم خروجا أو جهادا (وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) أى : ولن أرضى منكم الوقوف فى صفوف المسلمين لتقاتلوا أعداء الإسلام بعد اليوم (إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وبذلك ظهر جبنكم الذى سوى بينكم وبين النساء (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) أى : فتخلفوا مع الخوالف من عجائز النساء وكهول الرجال وصغار الصبية والغلمان لأنه مكانكم الذى يليق بكم حيث لا أمان لكم ، ونخشى خيانتكم وغدركم.

قوله تعالى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84)) .

قيل : إن سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشى فى جنازة عبد الله بن أبى ابن سلول وصلى فنزل قوله : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا) أى : إن الله تعالى نهى النبى (صلى الله عليه وسلم) عن تشييع جنازة أى واحد منهم يموت كما نهاه عن الصلاة عليهم نهيا مطلقا كما تفيد ذلك كلمة أبدا (وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) أى : ولا تقف على قبر أى منافق بعد موته ولا تدعوا له ولا تترحم عليه بعد دفنه وبعدم زيارته ضمنا ، لأن سياق الآية يتضمن

ذلك (إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) فى هذه الآية حيثيات نهى الله تعالى لنبيه عن الصلاة عليهم وعدم الوقوف على قبورهم ، وعدم الدعاء ترحما عليهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله علنا بعد نفاقهم المستتر ، وشر الكفر ما كان مغلفا بالنفاق ، ولهذا قال سبحانه : (وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فارقوا الحياة الدنيوية وهم خارجون عن الإسلام الذى تظاهروا بالدخول فيه نفاقا ، فاستحقوا الدرك الأسفل من النار جزءا وفاقا .

قوله تعالى : (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85))

.

الخطاب موجه إلى كل مؤمن فى كل زمان ومكان :

معلوم أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يكن معجبا بأموال الكفار ، وإلا لما رفضها منهم عندما عرضوها عليه بشرط أن يترك دعوة الناس إلى الحق ، وأيضا لم يكن معجبا بأولادهم ، ليقينه من أنهم سيعذبون آباءهم فى الدنيا بتصرفاتهم ، وسيلعنوهم فى الآخرة لأنهم كانوا سبب كفرهم وعذابهم فى النار ، وبناء عليه يكون قول الله تعالى : (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ) موجه إلى كل مؤمن فى كل زمان ومكان ، وقد رأينا بأعين رؤسنا أن كل من أعجب بالكفار وأولادهم لم تنفعه أموالهم التى أغدقوها عليه .

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا) أى : إن الله تعالى جعل أموالهم وأولادهم فتنة لهم ونقمة ، يستدرجهم بها ليشغلهم بجمعها وعناء المحافظة عليها والخوف من ضياعها فلا يستريحون من حمل همها ليلا ولا نهارا ، بل تراهم دائما أبدا فى كد وتعب وعذاب من كثرة المنافسات والمضاربات وسوء التوقعات التى تجعلهم دائما فى هم وكرب .

(وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

أى : يموتون أسوء موتة عندما يرون أنهم يفارقون أموالهم ، وينكشف لهم فساد أولادهم، فيشتد الندم فى وقت لا ينفعهم ، وتعظم الحسرة البالغة التى لا تفيدهم ، حيث تخرج أرواحهم فى وقت ظهرت فيه سيئات أعمالهم ، لأن للأرواح قوة تشرف بها على كافة الأعمال السابقة وتبين حقائقها ؛ فيسر ويستبشر كل من عمل خيرا ، ويحزن ويندم كل من عمل شرا وييأس من رحمة الله فيموت كافرا . نعوذ بالله تعالى من فتنتى الحياة والممات ، ونسأله الحفظ والسلامة فى كل الحالات .

قوله تعالى : (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87)) .

واضح من كلمات هاتين الآيتين أنهما مرتبطتان بالآيات الخمسة السابقة ، فجميعها تبين أحوال المنافقين وتصرفاتهم من أول فرحهم بمقعدهم خلاف رسول الله إلى أن تزهق أنفسهم وهم كافرون ، (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) أى : عدة آيات قرآنية تأمرهم بالإيمان والجهاد مثل قوله تعالى : (أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ) أى : صدقوا بالله تعالى وأطيعوا أوامره وجاهدوا مع رسوله (اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ) أى : اعتذر لك أهل الغنى والقوة من المنافقين ، وطلبوا منك أن تأذن لهم بالتخلف عن الجهاد (وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) الذين تخلفوا عن الجهاد لأسباب خارجة عن إرادتهم ، كالمرض أو القصور أو الجنس (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) أى : رضوا ان يوصفوا بالجبناء ، حين استأذنوا رسول الله فى المكوث مع الكهول والمرضى والنساء ، (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أى : غلفت قلوبهم بالجهل ، وأصيبت نفوسهم بالجزعة والخوف ، وختمت مدارك عقولهم بطابع معنوى (فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) أى صاروا كالأنعام المستأنسة لا يفهمون ما فى كلام رسول الله من خير دنيوى وأخروى ، ولا يدركون أين الخير وأين الشر وكل ما يهمهم هو المكوث فى البيوت جبنا من ملاقاة الأعداء فى ميدان القتال ، لأنهم ينقصهم الحماس لقضية الإيمان ، وما يدعو إليه من سعادة لبنى الإنسان ، فنفاقهم وضعهم بين المسلمين ، مع أن مكانهم الحقيقى مع الكافرين . ولو كان عندهم شئ من الشجاعة ، لما رضوا لأنفسهم هذه المهانة ، التى تجعلهم فى زمن السلم يبدون شجعان ، يدعون إلى القتال والحرب والطعان ، فإذا جد الجد فإذا بهم جبناء ، يطلبون من النبى أن يسمح لهم بالتخلف مع النساء .

قوله تعالى : (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)) .

اتصال الآية بما قبلها :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة صفات المنافقين وأحوالهم ، وذكر لنا كيف جبنوا عن الخروج مع المؤمنين جهاد بأنفسهم ، وكيف بخلوا عن اعداد جيش المسلمين بأموالهم ، أراد سبحانه أن يبين المقابل من أحوال المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله فقال تعالى : (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) أى : لكن الرسول النبى الأمى الذى آمن بما أنزل إليه من ربه ، وكل الرجال من صحابته الذين آمنوا معه وصدقوه (جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) فى سبيل الله ولم يبخلوا بشئ فى سبيل نصرة الحق ، فصاروا مع النبيين والصديقين والشهداء (وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ) الحقيقة الدائمة فى الدنيا والآخرة (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى : الناجون من الجهل العارفون فى الدنيا ، والفائزون برضاء الله تعالى عنهم فى الآخرة ، الباقون فى جنان الرضوان خالدين فيها أبدا .

ما أعده الله لهؤلاء لا تبينه العبارة ولا تدل عليه الإشارة :

أسأل الله تعالى أن يجمعنى واخوانى معهم ويحشرنا فى زمرتهم ، حتى ننعم جميعنا بما (أعد الله لهم) من الخيرات والبركات التى لم تراها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، ولم يتصورها فكر إنسان ، لأنها من إعداد الرحيم الرحمن ، القادر الحنان المنان، الذى أعدها لهم فى (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) وقد سبق لنا شرح معانى هذه الكلمات فيما سبق ، ونكتفى بذلك لأننا مهما حاولنا بيان حقيقتها فلن تسعفنا العبارات ولن تساعدنا الإشارات ، وكيف تبين العبارة أو تدل الإشارة على ما وصفه العليم الحكيم بقوله سبحانه : (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ومعلوم أن الكلام على قدر المتكلم ، والمخلوقات جميعها عاجزة عن الإحاطة بقدره جل شأنه سر قوله تعالى : (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [29] .

سر السابقين وجمال الخصوصية :

ولكننا كما تعودنا لا نخلى هذا المقام من الإشارة إلى ما تنطوى عليه الآيتين من سر السابقية ، وجمال الخصوصية ، فقد سبقت عناية الله الأزلية ، بمحبة النبى خير البرية وخصصته الإرادة الإلهية ، ليكون رسول الله وخاتم النبيين ، ورحمة الله للعالمين واختارت لصحبته هؤلاء المؤمنين وكشفت لهم عن نور الإيمان فصار حق يقين ، وبهذا النور رأوا الدنيا على حقيقتها ، وتحققوا من مبلغ حقارتها فقدموا الأموال وباعوا النفوس ، طمعا فى الحظوة لدى الملك القدوس ، وهكذا غمرتهم النعم الإلهية والعطايا الربانية ، من أول البداية إلى الختام فى النهاية ، فواجههم فى كل أطوارهم بوجهه الجميل ، ووفقهم إلى السير فى أقوم سبيل ووفقهم إلى الإيمان بالله ورسوله فى كل جيل ، ثم تفضل عليهم بفضله الجليل فنسب إليهم الإيمان وجزاهم عليه بالفضل والإحسان ، وأثابهم فى آخرتهم بما أعده لهم من عظيم الجنان ، وأعطاهم المشيئة لينالوا بها ما يشاءون ثم وعدهم بالمزيد سر قوله تعالى : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [30] نسأل الله تعالى أن يعاملنا بفضله وإحسانه ولا يعاملنا بعدله وميزانه إنه نعم القريب المجيب .

قوله تعالى : (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92)) .

اتصال الآية بما قبلها :

([29]) الحج : 74 .
([30]) ق : 35 .

بعد أن بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين كيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الذين صدقوه والتزموا معيته قد جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وأشار إليهم سبحانه بأن لهم الخيرات جميعها بلا تحديد لأنواعها وكمياتها ، وأخبرنا بأنهم هم المفلحون ، الذين أعد لهم جزاء جهادهم جنات كثيرة بلا حصر ، وأخبرنا بخلودهم فيها لا يتركونها ولا تتركهم ، وإن ذلك الفوز العظيم نصيب كل فرد فيهم، ناسب أن يبين حال أهل الأعذار فرارا من الجهاد ، فقال تعالى : (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ) أى : جاء للرسول قوم من سكان البادية يعتذرون عن الخروج من المؤمنين جهادا فى سبيل الله ، وكلمة الأعراب : اسم لجنس من العرب وليس جمعا لهم ، وقد نسب الله تعالى لهذا الجنس قوله سبحانه : (لِيُؤْذَنَ لَهُمْ) أى : ليستأذنوا من الرسول فى عدم الجهاد بسبب ما أبدوه من أعذار ، فأذن لهم (صلى الله عليه وسلم) (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى : لم يأت للاستئذان كل منافق ادعى الإيمان بلسانه وكفر بقلبه لأنه فى قرارة نفسه كذب الله فى قرآنه وكذب الرسول فى رسالته ، ولهذا أخبرنا الله تعالى عن عقابهم بقوله : (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : سيقع بأشخاص الذين كفروا من الأعراب الذين قعدوا عن استئذان الرسول – مع عزمهم على عدم الجهاد – عذاب أليم يحيق بهم عاجلا فى الدنيا وآجلا فى يوم الدين ؛ لأن العذاب الأليم من قول الله القوى المتين لا يحيط بمداه أحد من العالمين . نسأل الله تعالى ان يحفظنا بحفظه من كل موجبات غضبه .

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى)

أى : ليس الجهاد مفروضا على الضعفاء من الشيوخ المسنين وأهل المرض والمصابين بالعاهات (وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ) أى : ليس الجهاد مفروضا على الفقراء والمساكين الذين لا يملكون مالا ينفقون منه على أنفسهم فى جهاد أعداء الله وأعدائهم ، كما لا يجدون ما يجهزون به غيرهم فلا حرج عليهم فى العقود عن الجهاد (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) أى إذا كانوا مخلصين فى إيمانهم ونيتهم وقاموا بالدعوة والنصيحة لله ورسوله فى قومهم ، وألحو فى حثهم على الجهاد مع إخوانهم المؤمنين ، واستنفروا أهليهم وعشيرتهم على الجهاد ، ولم يثبطوا همة أحد من المجاهدين .

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)

أى : ليس على أهل الإحسان من الذين منعتهم الموانع القاهرة عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم وكانوا مخلصين لله ورسوله وقاموا بما يستطيعون من جهد فى سبيل الدعوة إلى الحق ، ليس عليهم حرج ولا عقاب ولا لوم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى : قد يغفر لهم تأخرهم عن الجهاد بسبب فقرهم ومرضهم وما بهم من عاهات تعجزهم عن الجهاد .

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ)الاية91

أى : وكذلك يسقط فرض الجهاد عن الرجال المؤمنين الأصحاء الذين صدقت نيتهم وظهرت عزيمتهم على الجهاد ، فجاؤك لتمدهم بما يلزم للقتال من خيول تحملهم وبعير تحمل متاعهم (قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) .

سبب نزول هذه الآية :

وقد وردت عدة روايات فى سبب نزول هذه الآية وملخصها أن عصبة من المؤمنين القادرين على القتال جاءوا رسول الله وطلبوا حملهم وحمل متاعهم مع غزاة المؤمنين ليجاهدوا فى سبيل الله ، فلما اعتذر (صلى الله عليه وسلم) عن إجابة طلبهم لعدم وجود ما يحملهم عليه (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) أى رجعوا إلى ديارهم والدمع منهمر من عيونهم حزنا على أنهم لم يجدوا ما يعينهم على الخروج مع غزاة المسلمين لقتال أعداء الله تعالى .

صفات أهل البادية تغاير صفات أهل المدن :

وفى هذه الآيات بعض الإشارات التى تبين ما عليه أهل البادية من صفات ، فطباعهم غير طباع أهل المدن ، فمنهم أهل الفطرة السليمة ، من ذوى النفوس الأبية الكريمة ، التى تبدى رأيها فى صدق وعزيمة وبطريقة واضحة مستقيمة ، لا تعرف التحايل بعبارات ماكرة لئيمة ، ولهذا جاء المعذرون منهم ليؤذن لهم فى التخلف عن الجهاد فقبل عذرهم وأذن الرسول لهم .

ومن أهل البادية من هم جفاة الطبع ، غلاظ القلوب ، قساة النفوس ، شديدوا النفاق مع من هم أقوى منهم ، وقد وصفهم الله العليم الحكيم فى الآية السابعة والتسعين من نفس السورة بقوله تعالى : (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وهذه صفات الطغاة البغاة من رؤساء البادية وكبارهم الذين قعدوا عن الجهاد ولم يبدوا عذرهم لأنهم فى الحقيقة لا عذر لهم ، ولهذا توعدهم الله ربهم بقوله وهو أصدق القائلين : (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) نعوذ بالله السميع العليم ، من غواية الشيطان الرجيم .

سر هذا التناقض فى صفات أهل البادية :

فالبادية سرها عجيب لا يفقهه إلا كل عاقل لبيب ؛ لأن هدوء حالها وصفاء جوها ونقاء هواءها وضياء نور شمسها ، وإمكانيات التعاون بين أهلها ، ووجود أسباب المحبة بين سكانها ، يجعل قراها محلا لإبراز أرقى الصفات وأضدادها ، فالنفوس الكريمة الطيبة تقبل الإسلام والتسليم ، وترقى بالتربية والتعليم إلى أعلى مقامات أهل اليقين بل وقد تتجاوز كل المقامات وتصير من أهل عليين ، وفى نفس الوقت تفرز أهل الشر المتكبرين ، الذين تغريهم سماحة وطيبة الصالحين ، فيتمادوا فى أعمال الشياطين ، حتى يصيروا بعد حين من عتاه المجرمين ، الذين يحلوا لهم نفاق الأقوياء ، تمهيدا لإذلال الضعفاء ، وخفض مكانة العلماء ، ورفع أشخاص الجهلاء ، حتى يسودوا على العالمين ، ويفسدوا فى الأرض فساد الشياطين ، فيستحقوا مصير أهل أسفل سافلين ، فى نار جهنم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم بحمد الله الجزء العاشر